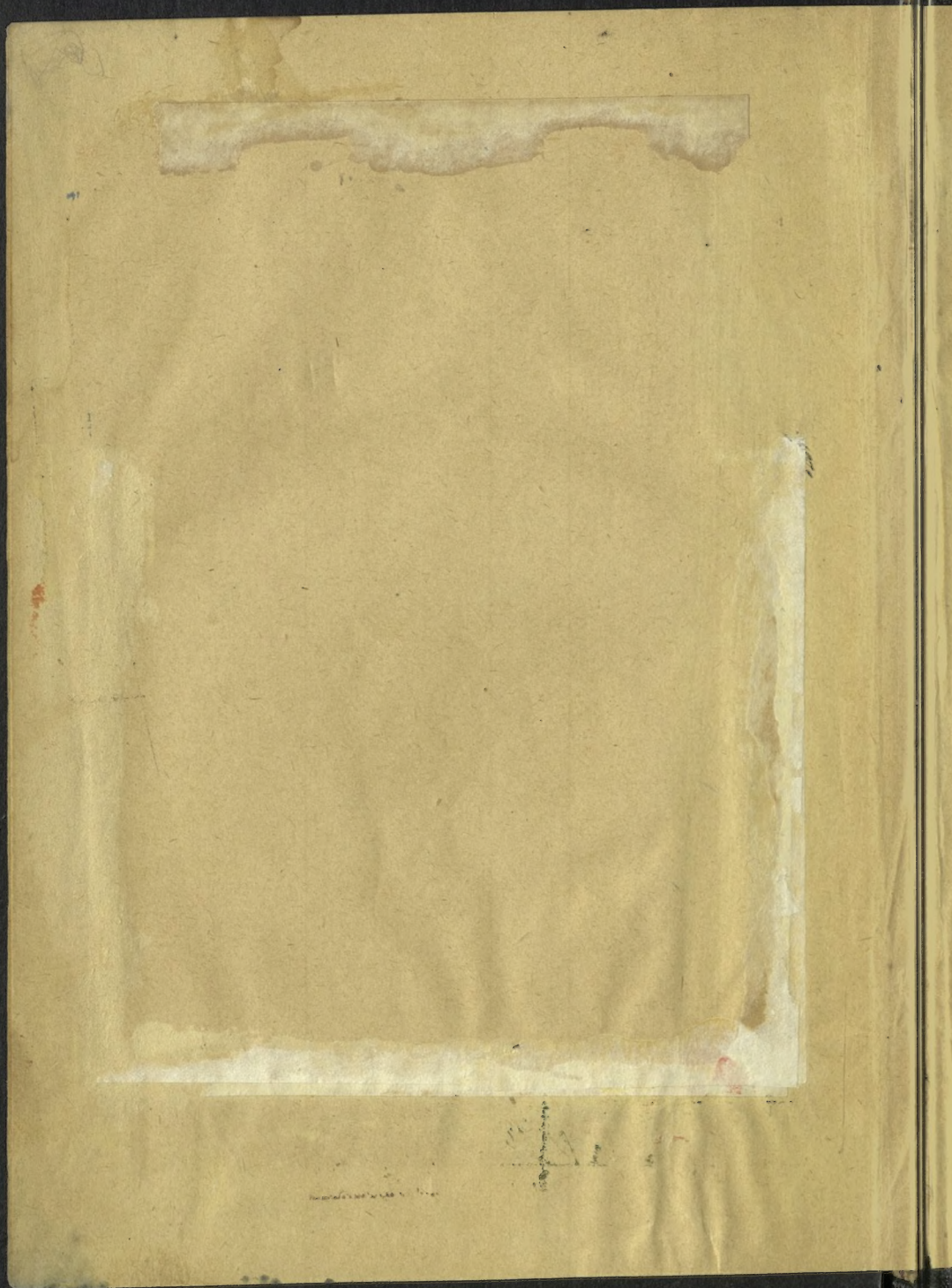
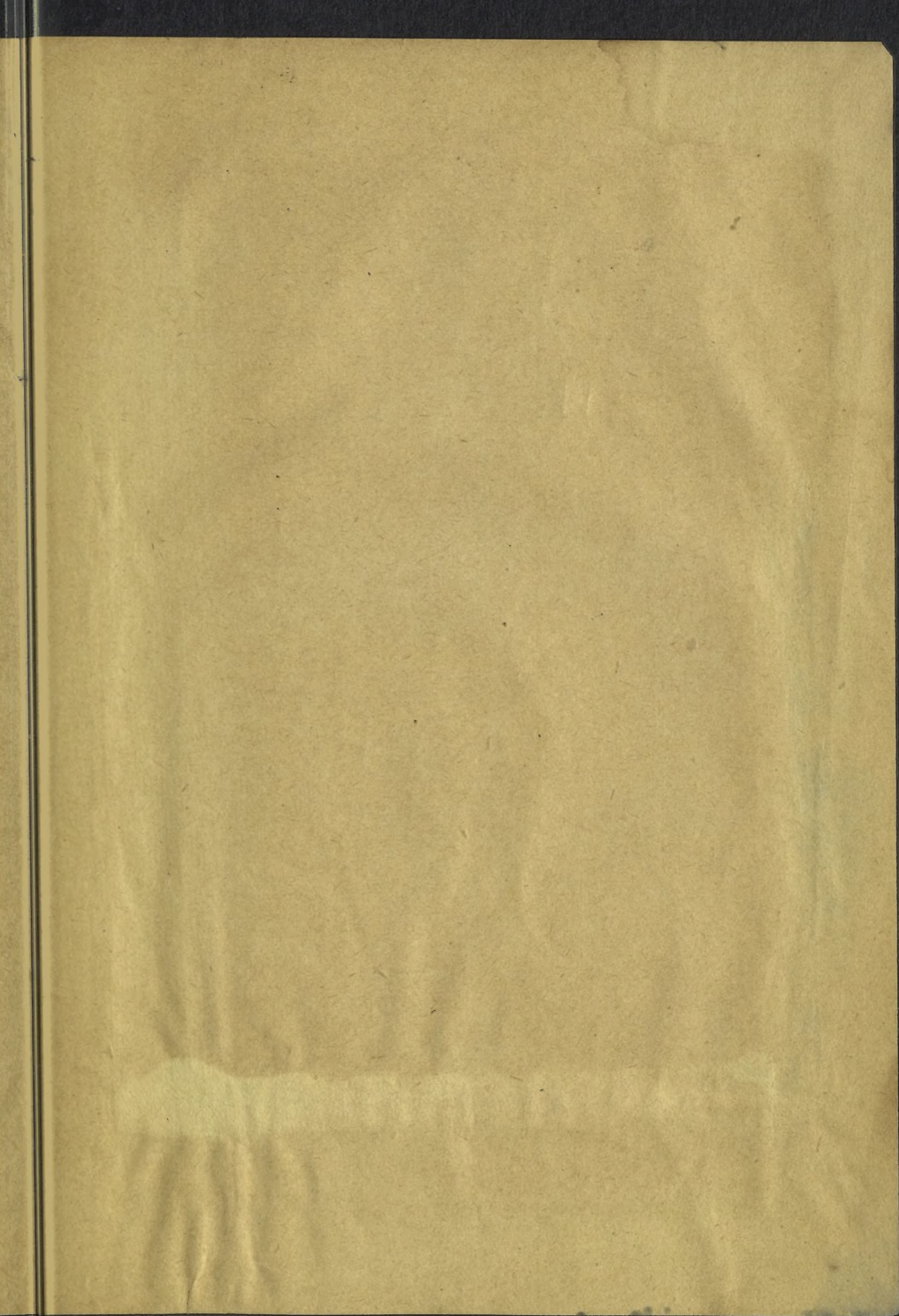


قُطْب

السلام العالمي والاسلامي

297.617
K97sA



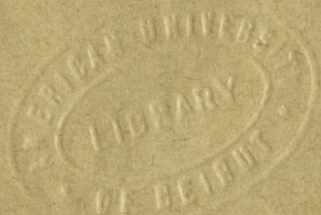


سید قطب

297.617

K971A

C.1



السلام العالمي والسلام

الناشر: مكتبة وهبة

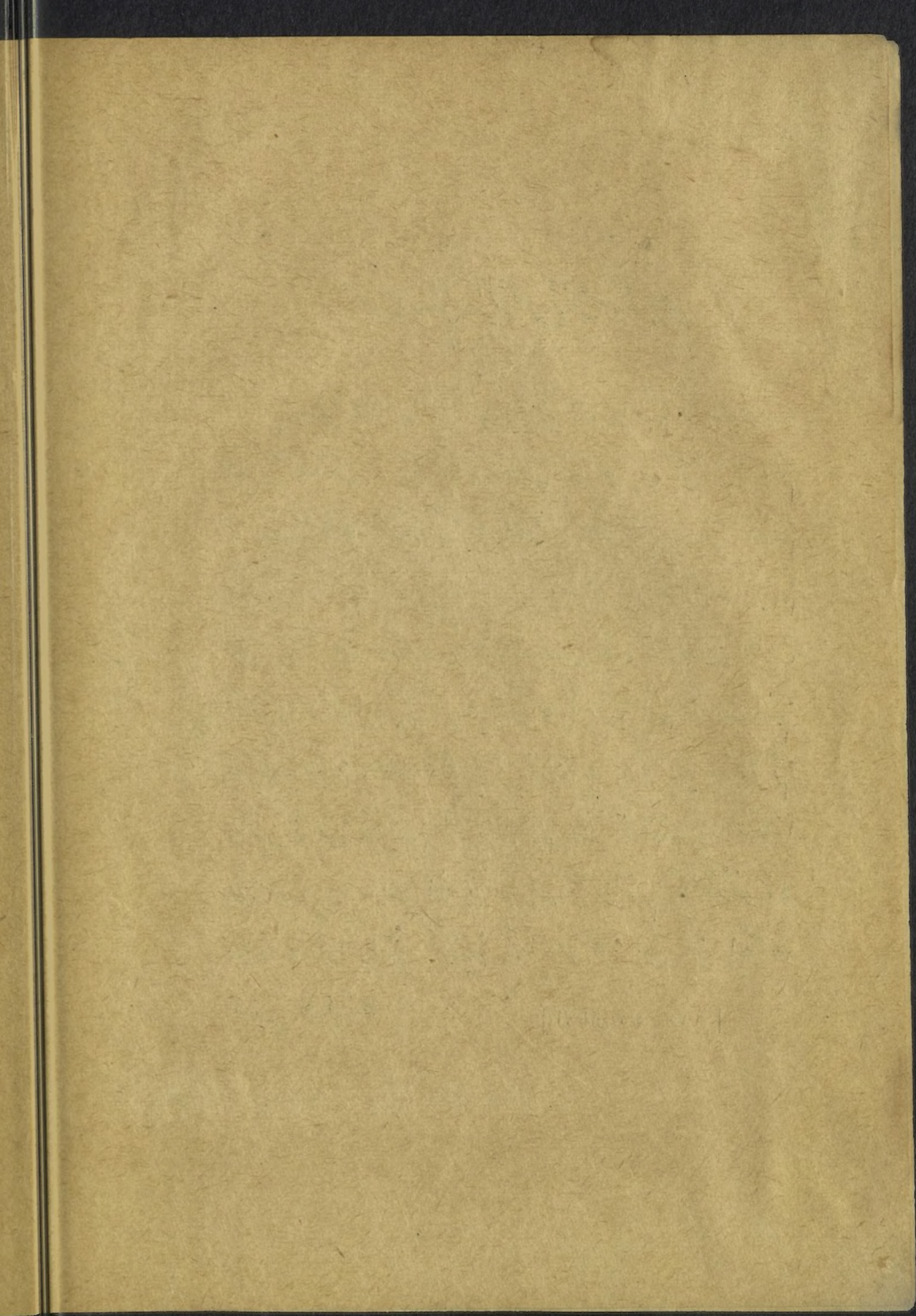
١٤ شارع البراهيم، باشا بعلبكي



غرة المحرم سنة ١٣٧١
٢ من أكتوبر ١٩٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ *
 الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ
 لَا يَتَّقُونَ * فَمَا تَتَّقُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ
 لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِنَّمَا تَخَافَنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ
 عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
 مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
 وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا
 مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ *
 وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *



العقيدة والحياة

عمر الفرد الفاني محدود ، وأيامه على الأرض معدودة ؛ وهو — بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذي يعيش فيه — ذرة تامة لا مستقر لها ولا قيمة ؛ وعمره بالقياس إلى الزمن الهائل من الأزل إلى الأبد ومضة برق أو غمضة عين . ولكن هذا الفرد الفاني . هذه الذرة التامة . هذا اللقي الضائع . . يملك في لحظة أن يتصل بقوة الأزل والأبد . أن يمتد طولا وعرضا في ذلك الكون الهائل . أن يرتبط به في أعماقه وأمشاجه بوشائج من القربى لا تنفصم . أن يشعر أنه من تلك القوى الهائلة وإليها . أنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشيء أحداثا ضخمة ، وأن يؤثر في كل شيء ويتأثر . . يملك أن يحس الوجود في الماضي ، والاستقرار في الحاضر ، والامتداد في الآتي . يملك أن يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التي لا تنضب ولا تنحسر ولا تضعف . وإنه لقادر إذن على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى ؛ فهاهو باللقي الضائع ، ولا بالفرد العاجز ، وهو يستند إلى قوة الأزل والأبد وإلى ما بينه وبينها من وشائج .

تلك وظيفة العقيدة الدينية ، وذلك أثرها في النفس والحياة . ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ؛ وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعم

الفانى المحدود ، فى سبيل الحياة الكبرى التى لا تقنى ؛ وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان ، وقوى المال ، وقوى الحديد والنار .. فإذا هى كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة فى روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفانى المحدود الذى هزم تلك القوى جميعاً ؛ ولكنها القوة الكبرى الهائلة التى استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذى لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف . وما تملك عقيدة أخرى — غير العقيدة الدينية — أن تصل السكان الفانى بقوة الأزل والأبد ؛ وأن تمنح الفرد الضعيف ذلك العون والسند ؛ وأن تصغر فى عينه قوى الجاه والمال ، وقوى المركز والسلطان ، وقوى الحديد والنار ؛ وأن تصبره على الحرمان والأذى ؛ وتقدره على الصبر والكفاح ؛ وتدفعه إلى الموت الذى يخلق الحياة ، والفناء الذى يمنح الخلود ، والتضحية التى تورث النصر .

ومن ثم قيمتها الكبرى فى حياة الأفراد وحياة الجماعات سواء .
ومن ثم ذلك الإصرار الذى نصرّه على مواجهة مشكلاتنا الاجتماعية ، ومشكلاتنا القومية ، ومشكلاتنا العالمية ، بحلول تنبع من عقيدتنا الدينية .
إن هذه العقيدة قوة هائلة فى أيدينا ، وقوة عميقة فى كيانتنا . قوة لا يتخلى عنها صاحبها فى زحمة الصراع إلا أن يكون به حقد أو سفة . ونحن نواجه صراعاً ضخماً فى الداخل وفى الخارج . نواجه قوى هائلة متكتلة أكبر من طاقتنا المجردة . فإذا كانت عقيدتنا تسعفنا فى هذا الصراع الضخم بقوى حقيقية واقعة ، وبحلول عملية واقعة كذلك . . فأى ضمير يملك أن يفرط فى تلك القوى ، وأن يتخلى عن هذه الحلول ، لمجرد أنها نابعة من تلك العقيدة ؟ !

إن بعض النظم الأخرى قد تقدم لنا بعض الحلول لبعض المشكلات في بعض الأحيان . . ولكن قيمة العقيدة التي ندعو إليها ليست مجرد تقديم الحلول الوقتية للمشكلات الوقتية . إنما قيمتها أنها تقدم هذه الحلول ، وتقدم معها القوة الضامنة لتحقيقها وحمايتها . قوة الدافع الفطرى العميق للعقيدة الدينية . ذلك الدافع الذى لا تملأ فراغه فى النفس الإنسانية فكرة فلسفية ، ولا مذهب اجتماعى ، ولا نظرية اقتصادية . ذلك أنه أعقق فى النفس البشرية من مستوى الفكر والمذاهب والنظريات . إنه جوعة فطرية لا يسدها إلا الإيمان . جوعة كجوعة الجسد إلى الطعام والشراب وسائر الضرورات .

وكم يخطئ الذين يخدعونهم خلود هذا الدافع فترة أو تواريه ؛ فيحسبونه قد مات ؛ ويحسبون أنهم يستطيعون ملء فراغه فى نفوس الأفراد والجماعات ، بمذاهب فلسفية ، أو نظريات اقتصادية ، أو أفكار اجتماعية .

وسرعان ما يتبين لهم خطأهم حينما تنتفض العقيدة الخادمة من حيث لا يحتسبون ، فتأتى بالحوارق فى حياة الفرد ، وفى حياة الجماعة . . هذه العقيدة التى كانت منذ لحظة خادمة هامة ، لا توحى بأمل ، ولا ينبعث منها رجاء . وإن هى إلا فترة كمن يحسبها الجاهلون موتاً ؛ ويدرك العارفون أنها طور من أطوار النفس البشرية ، الملية بالمسارب والمداخل ، وبالمنعرجات والدروب ! تلك الحوارق التى تأتى بها العقيدة الدينية فى حياة الأفراد وفى حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية

تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخافية ؛ وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ؛ وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين في النصر ، وقوة الثقة في الله . وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ؛ وتوضح له غايته وأجابه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها وتدفعها في اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها في اتجاه واحد ، تمضي إليه مستنيرة المهدف ، في قوة وفي ثقة وفي يقين .

والشخصية الإنسانية السوية وحدة متماسكة ؛ فهي في حاجة إلى عقيدة موحدة تصدر عنها في كل اتجاه ؛ وتستلهمها في الشعور والسلوك ؛ وتستهديها في مواجهة الكون والحياة ؛ وترجع إليها في كل صغيرة وكبيرة . وفضل هذه العقيدة في حياة كل إنسان ، أن تكون نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياته ونشاطه ؛ فلا تتمزق شخصيته وتتبعثر ، ولا يدركها القلق والحيرة والاضطراب . وكلما قويت هذه النقطة واشتدت صلاتها بالخيوط المنبثة هنا وهناك في حياة الفرد ونشاطه كانت شخصيته أقوى ، لأنها أكثر تجمعاً ؛ وكانت خطواته أهدى لأنها أوحده طريقاً .

والعقيدة التي تتسع لكل ألوان النشاط الإنساني هي عقيدة أفضل وأكمل من العقيدة التي تنظم بعض ألوان النشاط وتقتصر عن بعضها . وكلما ثاب الفرد في نشاطه كله إلى عقيدة واحدة كان ذلك أفضل له وأيسر من أن يرجع في ألوان نشاطه إلى عقائد متفرقة . إن وحدة العقيدة حينئذ تحقق وحدة الشخصية ، دون أن تجر على ألوان نشاطها المتعددة ؛ ودون أن تضيق مجال

النشاط أو تحده ؛ ودون أن تمزقها طرائق قددا ، وتوقع بينها الاضطراب أبدا .
والعقيدة الروحية التي لا رأى لها في السلوك الاجتماعى والعلاقات
الاقتصادية والنظم العالمية . كالنظرية الاجتماعية التي لا رأى لها في الاعتقاد
الروحى والتنظيم الدولى . كالفكرة الفنية التي لا علاقة لها بالسلوك أو الاعتقاد
أو النظام . . كلها محاولات ناقصة ، لا تملك أن تنظم الإنسانية حياتها
كاملة ؛ ولا أن تحقق للشخصية الإنسانية التماسك والاتساق .

إن الفرد كالجماعة فى حاجة ملحة إلى عقيدة تتسع لكل ألوان النشاط
الحية ، وتهيمن على اتجاهاتها جميعا ، لتدفع بها كلها فى طريق الإنشاء والبناء
والنماء . والفترات التي يهتدى فيها الفرد أو تهتدى فيها الجماعة إلى مثل هذه
العقيدة ، وتستجيب لها استجابة كاملة ، وتحققها فى واقع الحياة . . هى الفترات
التي تحقق فيها البشرية ما يبدو كأنه معجزات ، وما يصعب تفسيره إلا على
ضوء الوحدة التي تجمع الطاقة ، وتصونها عن التبدد والتمزق ، وتدفع بها
كلها فى اتجاه واحد ، كالتيار الجارف ، وكالسيل الجبار .

والعقيدة الإسلامية هى المثال الواحد الذى عرفته الإنسانية فى تاريخها
الطويل فى هذا المجال . إنها العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان فى كل
حقول الحياة ؛ فلا تقصر مهمتها على حقل دون حقل ، ولا على اتجاه دون اتجاه .
إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فما لقيصر ، وقيصر ذاته ، فى العقيدة
الإسلامية كله لله . وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه !

وإنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده ؛ أو تتولى شعائره وتهمل
شرائعه ؛ أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه . وإنها لا تتولاه فردا وتهمله جماعة ؛
ولا تتولاه فى حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته .

إنها الفكرة الكاملة الشاملة التي تمتد خيوطها في الحياة الإنسانية امتداد
الشرايين في الكائن الحي وامتداد الأعصاب .

* * *

ونحن في مصر — وفي العالم الإسلامي كله — نواجه ألوانا شتى من
المشكلات والعوائق . نواجهها في الداخل في صورة مشكلات اجتماعية
واقتصادية وأخلاقية ؛ ونواجهها في الخارج في صورة مشكلات قومية ودولية ؛
ولكننا نواجهها ونحن لا نجد أنفسنا ، ولا نعرف رصيدنا من الطاقة ، ولا
ندرك لنا هدفا ولا طريقا . نواجهها أحوج ما نكون إلى عقيدة واحدة تجمع
قوانا ، وإلى راية واحدة نقف في ظلها صفا ، وإلى فكره واحدة نواجه بها
الحياة ونواجه بها المشكلات ، ونواجه بها تلك القوى التي تناصبنا العداء ،
في الداخل وفي الخارج سواء .

ولقد كنا نتجنى على عقيدتنا الضخمة ، ونظن بها عن جهالة أو عن
غرض ، أنها لا تسعفنا بالحلول العملية المحدودة لمواجهة الحياة العصرية ومشكلاتها
وبخاصة في الحقل الاجتماعي والحقل الدولي .

فأما الحقل الاجتماعي فقد صدرت فيه عدة مؤلفات تكشف عن الحلول
العملية التي يملك الإسلام أن يواجه بها الحياة ؛ وقد تذاوبت معظم الاعتراضات
التي كان يبديها طلاب العدالة الاجتماعية ؛ ورأوا أن الإسلام يملك أن يحقق
عدالة أشمل وأكمل من كل ما تملك تحقيقه جميع المذاهب الاجتماعية الأخرى .
وأما الحقل الدولي ، فربما كان العمل فيه قليلا ، ولم تشرح هذه الناحية

بعد شرحا كافيا . . . وأمامنا اليوم مشكلة السلام العالمي التي تواجهها البشرية
جميعا ، ونواجهها نحن ضمنا . فهل للإسلام فيها رأى ؟ ولها عنده حل ؟
هذا الكتاب كله هو الإجابة التفصيلية على هذا السؤال . . .

طبيعة الإسلام في الإسلام

فكرة السلام في الإسلام فكرة أصيلة عميقة، تتصل اتصالاً وثيقاً بطبيعته؛ وفكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان. هذه الفكرة التي ترجع إليها نظمه جميعاً؛ وتلتقي عندها تشريعاته وتوجيهاته؛ وتجتمع إليها شرائعه وشعائره، بشكل لا يخطر على بال الباحثين الدارسين أنفسهم لهذا الدين، إلا أن يبالغوا بالبحث والدرس إلى الجذور العميقة البعيدة، ويتتبعوا امتدادها وتفرعها، في يقظة وصبر وإحاطة.

وفكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان ليست موضوع بحثي اليوم في هذا الكتاب؛ كما أنها لم تكن موضوع بحثي في كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» ولكن البحث في أي حقل من حقول الإسلام لا غنى له عن الإلمام بتلك الفكرة الكلية الكبيرة، لشدة الترابط والتناسق بين أجزائها واتجاهاتها، وتوثق الصلات بينها وبين كل فكرة جزئية، أو مسألة تفريعية... فهذا الدين لا يعالج مشكلات الحياة الإنسانية أجزاءً وتفاصيل؛ ولا يقيم كلا منها على أصل لا علاقة له بسائر الأصول. إنما هو يرجعها كلها إلى نقطة ارتكاز واحدة؛ ويديرها كلها حول محور جامع واحد، تشدها إلى هذا المحور خيوط ظاهرة أو دقيقة، ولكنها قائمة على كل حال، تتولف من مسائل هذا الدين وقضاياها وحدة كلية جامعة، مردها إلى فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان.

وطبيعة السلام في الإسلام على وجه خاص لا غنى لها عن الإمام بفكرة الإسلام الكلية تلك ، فمنها تنبع نبغاً مباشراً ، وإليها ترجع رجعاً مباشراً . فلنحاول أن نلم بها هنا في سطور قليلة ، قبل الحديث عن « طبيعة السلام في الإسلام » كما ألمنا بها هناك قبل الحديث عن « طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام » .

الإسلام دين الوحدة الكبرى في هذا الكون الكبير . . الوحدة بين جزئياته جميعاً : من الذرة المفردة إلى أرقى طبقات الحياة المركبة . والوحدة بين مقدراته جميعاً : من الجماد الساكن ، إلى النبات النامي ، إلى الحيوان المتحرك إلى الإنسان الناطق . والوحدة بين نشاطه جميعاً : من دورة الأفلاك والكواكب إلى جولة الأفكار والأرواح . والوحدة بين اتجاهاته جميعاً : من استجابة الأفلاك للناموس ، إلى استجابة الأرواح للمعرفة . والوحدة بين طاقاته جميعاً : من جوعة الجسد للضرورات ، إلى هتاف الروح بالأشواق . . ثم الوحدة بين الأحياء فيه جميعاً ، وبين الأجناس فيه جميعاً ، وبين الأجيال فيه جميعاً ، وبين بدئه ومنتهاه ، وبين أرضه وسماه ، وبين آخرته ودينه . . .

يبدأ الخطوة الأولى بتوحيد الإله ، الذات التي تصدر عنها الحياة ، وإليها

وحدها الاتجاه :

« قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ^(١) . . وبذلك يبت كل أسباب الفرقة والخلاف في مصدر الكون الأول .

ويرفع أسباب الفساد والصدام في صميم الناموس . فوحدة الإله الخالق تنفي
عن ناموس الكون تعدد التصميم والمظام ؛ وتنفي عنه تبعاً لهذا أسباب
التعارض والاصطدام . وذلك مصداق ما يقول القرآن : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ
إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ^(١) . ومصداق ما يقول : « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ
مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ . إِذَنْ لَنَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » ^(٢) .
عن إرادة هذا الإله الواحد ، يصدر الكون بطريق واحد : « إِنَّمَا أَمْرُهُ
إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ . فَيَكُونُ » ^(٣) . . فلا وساطة بين الإرادة
الموجدة والكون المخلوق ؛ ولا تمدد في الطريقة التي يصدر بها هذا الكون
كله عن الخالق الواحد . إنها مجرد الإرادة التي يعبر عنها القرآن بالكلمة :
« كُنْ » وتوجه هذه الإرادة كاف وحده لصدور الكون عنها : « كُنْ فَيَكُونُ »
وبذلك ينفي عن علة صدور الكون كل وساطة أو ثنائية أو تعدد ؛ فينفي كل
ظل للتصادم أو التعويق أو التفاوت منذ اللحظة الأولى ؛ ويقرر انسياب
الكون في طريق الوجود بيسر وبساطة وتناسق . هذا التناسق الملحوظ
في الظاهر ، الكامن كذلك في نظام الكون والحياة كلها والأحياء : « الَّذِي
خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ . فَأَرْجِعِ
الْبَصَرَ . هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ
حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ » ^(٤) .

وفي يد هذا الإله الواحد ملك كل شيء ؛ وإليه يتوجه الكون كله ، ووحدة

(٢) المؤمنون ٩١ .

(١) الأنبياء ٢٢ .

(٤) تبارك ٤٣ .

(٣) يس ٨٢ .

وأفراداً ، في الدنيا والآخرة ، في العمل والصلاة ، في الحيا والمات . وإليه مرده كما كان عنه مورده : « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^(١) » .. « تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ^(٢) » .. « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ^(٣) » .. وبذلك ينفي عن السكون والحياة والأحياء فكرة ضلال الغاية أو تعدد الوجهة ، أو تصادم الغرض ؛ ويطبقها على النهج الموحد الواضح المتناسق ؛ ويسلكها في الطريق الواحد المؤدى إلى الغاية . غاية الجميع ووجهة الجميع . هذا السكون المتفرق الأجزاء ، المتعدد الأشكال ، المتنوع الأحجام .. يرجع إلى أصل واحد ، وإلى طبيعة واحدة . وقد كان في أصله مجتمعاً ، ثم تفتت أجزاؤه ، وتكونت أبعاده : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ^(٤) » . ويخضع كله لناموس واحد ؛ ينسق حركاته ، ويقيه التصادم والتهدم ؛ ويهيمن على أجهامه وأفلاكه ، وينظم سيرها ومجراها : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ^(٥) » .. وبذلك يتنفي عن أجزاء السكون المنفرقة صفة التقاطع والتناثر ؛ ويثبت لها صفة التوحد والتناسق ، في طبيعة التكوين . وفي صميم الناموس ، وفي نظام الحركة سواء .

(٣) الذاريات ٥٦

(٢) الإسراء ٤٤

(١) تبارك ٢٤١

(٥) يس ٣٨ — ٤٠

(٤) الأنبياء ٣٠

والحياة في هذا الكون مقصودة وليست فلتة عابرة . وقد روعى في تصميم الكون وفي ناموسه أن يسمح بظهور الحياة ؛ وأن يوافيها بحاجاتها وحاجات الأحياء ؛ وأن يحرسها من التحطيم والمهلك والفناء .

فهذه الأرض « جعلَ فيها رواسيَ من فوقها ، وبارك فيها ، وقَدَّر فيها أقواتها^(١) » .. « وأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ »^(٢) .. « والأرضَ وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان^(٣) » .. « هو الذي جعلَ لكم الأرضَ ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه^(٤) » .. وهذه السماء قد روعى في تصميمها مقتضيات الحياة : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً^(٥) » .. « وممسكُ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه^(٦) » .. وهذه الرياح بين السماء والأرض في خدمة الحياة والأحياء : « الله الذي يرسلُ الرياحَ فتثبِرُ سحاباً ، فيبسُطُها في السماء كيف يشاء ويجعلُ سحماً ، يفرى الودقَ يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون^(٧) » .. وبذلك يقرر التعاون والتناسق بين طبيعة الكون وطبيعة الحياة في عمومها ويبعد فكرة التصادم والتعارض . كما يقرر مبدأ النظام المقصود في بناء الكون ، وينفي فكرة المصادفة العمياء التي لا تقوم على نظام .

والحياة الفايضة في هذه الأرض خرجت من أصل واحد ، وتحتوى كلها على هذا العنصر الواحد . عنصر الماء الذي هو الأصل للأحياء : « وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ^(٨) » .. والأحياء العليا منها تشترك في خاصية واحدة .

(٣) الرحمن ١٠ - ١٢

(٢) النمل ١٥

(١) فصلت ١٠

(٦) الحج ٦٥

(٥) فصلت ١٢

(٤) تبارك ١٥

(٨) الأنبياء ٣٠

(٧) الروم ٤٨

خاصية التزاوج : « سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا : مِمَّا تَنْتَبِهُتُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ^(١) » . . « فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ^(٢) » . . وتشترك في تنظيم جماعى واحد « وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ^(٣) » . . وبذلك يقوم النسب بين الأحياء في الأرض جميعا ؛ ويصبح الأحياء أسرة واحدة ، نبشت من أصل واحد ؛ وتقوم القرابة بين الأحياء العليا كلها ذات الخصائص الواحدة .

والإنسان ، أرق نماذج الحياة ، مصوغ كيانه من مادة السكون الأولى ، ونسبه إلى مادة هذا السكون عريق : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ^(٤) » وأفراد هذا الإنسان بعد ذلك موحدون في أصلهم الواحد ، متساوون في نسبتهم إليه : « أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ ^(٥) » . . وكل أفراد هذا الجنس خلقوا من نفس واحدة ، ومن هذه النفس الواحدة خلق زوجها ، ومنهما معاً صدر الأفراد جميعاً : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ^(٦) » . . وكلهم خلقوا ليتعارفوا ويتآلفوا لا ليتناحروا ويتدابروا : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ^(٧) » . . وبذلك يزيل كل أسباب النزاع العنصرية والجنسية ، بتقرير وحدة الإنسانية في طبيعتها وفي أصلها وفي نشأتها ؛ وبتقرير الغاية من تفرق الأجناس والقبائل ، والنص على أنها التعارف والمآلف ، لا التناحر والتدابر .

(١) يس ٣٦ (٢) المورى ١١ (٣) الأنعام ٣٨ (٤) المؤمنون ١٢
(٥) مسلم وأبو داود (٦) النساء ١ (٧) الحجرات ١٣

إلى هذه البشرية الواحدة أرسل الله الواحد رسالة واحدة ، المؤمنون بها
أمة واحدة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ^(١) ..
« قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق
ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ،
لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » ^(٢) .. « يا أيها الرسل كلوا من
الطيبات واعملوا صالحا . إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة
وأنا ربكم فاتقون » ^(٣) .. وبذلك يزيل كل أسباب النزاع الدينية
بتقريره أن الدين كله من عند الله ، وأنه دين واحد يدعو إلى الإسلام لله
الواحد بلا شريك ، وإلى الدينونة لهذا الإله الواحد دينونة مطلقة في أمور
الدنيا وأمور الآخرة بلا تفریق .

ثم يسير الإسلام أشواطاً أخرى في تقرير فكرة الوحدة الكبرى ؛
ويتسلل بها إلى كوامن النفس وترعات الجسد وسبحات الروح ؛ ويدخل بها
إلى كل زاوية في حياة الإنسان ، وإلى كل وجهة من وجهات الحياة ... ولكن
هذه مباحث لا حاجة بنا هنا لتقصيها . فحسبنا هذا القدر في التمهيد لبیان
« طبيعة السلام في الإسلام » .

من هذا التناسق في طبيعة الكون ، وفي ناموس الحياة ، وفي أصل
الإنسان .. تستمد طبيعة السلام في الإسلام ؛ فتستند إلى أصل أصيل عميق ؛

(٣) المؤمنون ٥١ ، ٥٢

(٢) البقرة ١٣٦

(١) الشورى ١٣

ويصبح السلام هو القاعدة الدائمة ، والحرب هي الاستثناء الذي يقتضيه الخروج عن هذا التناسق بالبغي والظلم ، أو بالفساد والاختلال ، فترده الحرب الموقوتة إلى التناسق الدائم والصالح الواجب .

ذلك أن الإسلام ينفي منذ الخطوة الأولى معظم الأسباب التي تثير في الأرض الحروب ؛ ويستبعد ألواناً من الحرب لا يقر بواعثها وأهدافها :

يستبعد الحروب التي تثيرها العصبية العنصرية : فلا مكان فيه للعصبية العنصرية ، وهو يقرر أن الناس كلهم من أصل واحد ، وأنهم خلقوا كلهم من نفس واحدة ، وأنهم جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا .

ويستبعد الحروب التي تثيرها العصبية الدينية بمعناها الضيق الذي عرفه الصليبيون وغير الصليبيين ؛ فلا مكان فيه للعصبية الدينية بمعنى كراهية الأديان الأخرى وإنكارها لذاتها دون بحث في مبادئها وحقائقها ، وهو يقرر أن دين الله واحد ، وأن المؤمنين أمة واحدة ، كلهم يدينون بالإسلام بمعنى الاستسلام الكلي لله ، وعبادته وحده بلا شريك ، ويقرر في الوقت ذاته أن : « لا إكراه في الدين »^(١) « ويأمر نبيه أمراً صريحاً ألا يتجاوز في دعوته لأصحاب المعتقدات الأخرى حد التذكير والتنوير : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأُمِّيِّين : أأسلمتم ؟ فإن أساموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ »^(٢) ما لم يكفروا بالله ، ويحلوا ما حرم الله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يُعطوا الجزية عن يديهم صاغرون »^(٣) .

ويستبعد الحروب التي تثيرها المطامع والمنافع : حروب الاستعمار والاستغلال

والبحث عن الأسواق والخامات ، واسترقاق المرافق والرجال . فلا مكان فيه لهذه الحروب ، وهو يعد البشرية كلها وحدة متعاونة ، بل يعد الحياة كلها أسرة قريبة النسب ، بل يعد الكون كله وحدة غير متنازعة الأهداف . وهو يأمر بالتعاون على البر والتقوى لا على الإنم والعدوان . وهو يحرم السلب والنهب والغصب . وهو يعد البشرية كلها بالعدل المطلق ، لا فارق بين جنس أولون أو دين في الاستمتاع الكامل بعدل الله .

✓ كما يستبعد الحروب التي يثيرها حب الأمجاد الزائفة للملوك والأبطال ، أو حب المقام الشخصية والأسلاب : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « الرجل يُقاتلُ لغنم ، والرجل يُقاتل للذكر ، والرجل يُقاتل لثرى فمن في سبيل الله ؟ قال — صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(١) .

هنا نتبين تلك الحرب الوحيدة المشروعة التي يقرها الإسلام : « من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » فإذا هي كلمة الله التي يُقاتل من يُقاتل في سبيلها فيكون في سبيل الله ؟

إن كلمة الله هي التعبير عن إرادته ، وإرادته الظاهرة لنا نحن البشر ، هي التي تتفق مع الناموس الذي وضعه للكون والحياة والناس . وقد مر بنا أن التناسق في طبيعة الكون والتعاون في حياة البشر هما القانون الذي يريده الله للحياة . التناسق الذي يمنع الفساد والاضطراب ، ويسمح للحياة بالرفق والازدهار والارتفاع .

والتعاون الذى يحقق الخير العام للبشرية فى جميع الأعصار : « وتعاونوا على البرِّ والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ^(١) » .

ولقد جاء الإسلام إلى هذه الإنسانية كلها ، فمن تحقيق كلمة الله أن يصل هذا الخير الذى جاء الإسلام به إلى الناس جميعاً ؛ وألا يحول بينهم وبينه حائل . فمن وقف فى طريق هذا الخير أن يصل إلى الناس كافة ، وحال بينهم وبينه بالقوة ، فهو إذن معتدٍ على كلمة الله ، وإزالته من طريق الدعوة هى إذن تحقيق لكلمة الله . لا لفرض الإسلام فرضاً على الناس ، ولكن لمنحهم حرية المعرفة وخبرة الهداية ، فالإسلام لا يُكره أحداً على اعتناقه ، ولكنه يكره الذين يقفون بالقوة فى طريقه ، ويفتنون الناس عنه : « وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » ^(٢) وهذه حرب من الحرب التى يقرها الإسلام ، ويحرض عليها تحريضاً ، ويدعو رسوله أن يحرض عليها المؤمنين ، ويجب الذين يخوضونها ، ويعدهم أعلى درجات الرضوان .

ولقد جاء الإسلام ليحقق العدالة فى الأرض فاطبة ؛ ويقيم القسط بين البشرية. العدالة بكل أنواعها: العدالة الاجتماعية، والعدالة القانونية ، والعدالة الدولية . فمن بغي وظلم وجانب العدل فقد خالف عن كلمة الله . وعلى المسلمين أن يقاتلوا لإعلاء كلمة الله ، وأن يردوا الشاردين عنها إليها حتى لو امتشقوا الحسام فى وجوه المسلمين الباغين . فالعدل المطلق ، ورد البغى والعدوان ، هو كلمة الله التى يجب أن تعمل فى كل حال وفى كل مكان : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى

تَنفَى إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا . إِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الظُّلْمِ فَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » (١)

وإذا كان الإسلام يدعو المسلمين أن يقاتلوا المسلمين لرد البغى وتحقيق القسط ، فهو يدعوهم إلى دفع الظلم كافة ، إلى دفع الظالم عن أنفسهم وإلى دفعه عن كل مظلوم لا يملك له دفعا ؛ على ألا يعتدوا هم ولا يبغيوا حتى في رد العدوان عنهم : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (٢) . . « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » (٣) .

لهذه الأغراض العليا وحدها يحمل الإسلام السيف ، ويعظم الإسلام الجهاد ، ويعدُّ المجاهدين أعلى درجات الشهادة والجزاء : « إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ . وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ » (٤) . . « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » (٥) .

ولهذه الأغراض العليا وحدها يدعوهم أن يعدوا العدة ، ويهيئوا القوة ، وألا يهينوا ويدعوا إلى السلم الرخيصة : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ

(٣) النساء ٧٥

(٢) البقرة ١٩٠

(١) الحجرات ٩

(٥) آل عمران ١٦٩ - ١٧١

(٤) التوبة ١١١

ومن رِباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم^(١) . . « ولا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَبْتَزَّكُمْ أَعْمَالُكُمْ^(٢) »

على أن إعداد العدة ، وتوفير القوة غرض مقصود لذاته ، وضرورة من ضرورات الفكرة الإسلامية . . إن الإسلام هو آخر رسالة السماء إلى الأرض ، وهو جماع العقيدة التي أرادها الله للبشر ، وهو « الدين » الذي جاء بمواعده الأساسية كل رسول : « إن الدين عند الله الإسلام^(٣) » فكل نبي جاء ليأمر الناس بعبادة الله الواحد دون شريك ، والإسلام لله الواحد بلا تردد . ثم جاء محمد بهذا الدين « مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه^(٤) » . هذه الرسالة الأخيرة إذن هي الوصية على روح البشرية كلها وعلى حياتها جميعاً . ولا بد للوصي من قوة تقرر وصايته ، لا عن طريق الإرغام والإرهاب ، ولكن عن طريق الاحترام والهيبه . والناس هم الناس لا بد أن يزيغوا إذا لم يجدوا الرادع القوي الذي يحفظ الحدود ويحميها ، فلا بد أن تكون هنالك قوة يحسبون حسابها ، ولو لم تمد إليهم يدها . والمهدي الأعزل مهمل ، والخير الضعيف منبوذ .

فإعداد القوة واجب ، واجب ليكون في هذه الأرض سلطة عليا ترد الشاردين عن الحق إليه ؛ وتقف الطغاة عن البغي والعدوان ؛ وتحفظ على الأمنين أمنهم وسلامتهم ، وتعز كلمة الله عن الاستخفاف والمهوان . فأما حين تتحقق الحرية المنيعه ، فلا يصد الناس بالقوة عن كلمة الله ، ولا يفتنون عن دينهم الذي ارتضوه . وحين تتحقق العدالة الخيرة ، فلا يبغي

بعض الناس على بعض ، ولا يستذل بعضهم رقاب بعضهم . وحين يتحقق الأمن للضعفاء الذين لا يملكون عن أنفسهم دفاعاً ، وكيف الباغي عن بغيه ويخضع إلى السلم والمهادنة . . حين يتم هذا فالإسلام المالك للقوة المستعد للطوارئ يحرم الحرب تحريماً ، ويدعو إلى السلم فوراً : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » ^(١) . . « فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُفَاتِلُوكُمْ وَأَتَوْا بِكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » ^(٢) .

ذلك إجمال فكرة السلام في الإسلام : السلم قاعدة والحرب ضرورة . ضرورة لتحقيق خير البشرية ، لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد . ضرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التي جعلها الله غاية للحياة الدنيا . ضرورة لتأمين الناس من الضغط ، وتأمينهم من الخوف ، وتأمينهم من الظلم ، وتأمينهم من الضر . ضرورة لتحقيق العدل المطلق في الأرض ، فتصبح إذن كلمة الله هي العليا . وواقع الإسلام التاريخي يثبت هذه المبادئ النظرية . فلقد جاء محمد مأموراً أن يبلغ الرسالة للناس كافة : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ^(٣) ، وأن يعلن دعوة الله خالصة ، بلا من ولا أجر : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ، وَلِرَّبِّكَ فَاصْبِرْ » ^(٤) . . وأن يسلك بالدعوة طريق العدل بالحسنى ، والإقناع بالحجة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في غير قسوة ولا غلظة : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ^(٥) . « وما أنت عليهم بجبار ، فذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدِ » ^(٦) .

(٣) سبأ ٢٨

(٢) النساء ٩٠

(١) الأنفال ٦

(٦) ق ٤٥

(٥) النحل ١٢٥

(٤) المدثر ١ - ٧

وهكذا سارت الدعوة على هذا الأساس ، لا يبغي محمد من الناس إلا أن يستمعوا إليه ، فإن صغت قلوبهم إلى الإيمان فليؤمنوا ، وإن قست قلوبهم وran عليها الضلال فأمرهم إلى الله .

ولكن الناس لم يسالموا محمداً كما سألهم ؛ ولم يدعوا للدعوة السلمية طريقها ، ولا لمعتنقيها المقتنعين بها حريتهم ؛ فأذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم ، وقاتلوهم حيثما وجدوهم ؛ وحالوا بين الدعوة وبين الأسماع بالقوة المادية المجردة من كل إقناع .

عندئذ حمل الإسلام السيف ليزود عن مبدأ أساسى من مبادئه : مبدأ حرية الدعوة وحرية العقيدة : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا . وَإِنْ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَتَقْدِرَ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبَّنَا اللَّهُ . وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنْ اللَّهُ لَقَوًى عَزِيزٌ » (١) .

ولقد هادن النبي صلى الله عليه وسلم كل من طلب الهدنة ، وكل من اتخذ عنده عهداً ، فلم يقاتل منهم إلا الذين نقضوا عهودهم ، وتآمروا على المسلمين مع أعدائهم . وفى ذلك كانت غزوة بنى قريظة بعد ما ألبوا الأحزاب على المسلمين فى غزوة الخندق ، تنفيذاً لأمر الله فى ناقضى العهد ونا كشيته : « إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ

يَتَّقُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِذَا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ^(١) .

ولقد كان الشرط الرابع من هدنة الحديبية التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش : « أن من دخل في عهد قريش دخل فيه ، ومن دخل في عهد محمد دخل فيه » وبناء على ذلك تحالف بنو بكر مع قريش ، وتحالفت خزاعة مع محمد . وقد كانت قبيلة خزاعة حليفة في الجاهلية لعبد المطلب جدَّ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فأرادت أن تجدد ميثاقها معه كما كان مع جده . وكان ميثاقها مع عبد المطلب يتضمن هذه الفقرة : « إن عبد المطلب وولده ورجال خزاعة متضافرون يتعاونون ، وعلى عبد المطلب النصرة لهم ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده على جميع العرب في شرق وغرب وحزن وسهل » .

وقد أقر النبي هذه المعاهدة ؛ ولكنه زاد فيها شرطين يحددان فيم يكون التعاون والنصر ، كي تتفق مع مبادئ الإسلام الأساسية . وكان هذان الشرطان : « ألا يعين خزاعة إذا كانوا ظالمين » و « أن ينصر خزاعة إذا ظلموا » .

وكانت خزاعة حتى ذلك الوقت لم تسلم . ولكن محمداً باسم الإسلام تعهدها بالنصر من الظلم ، لأن الإسلام يكرهه في جميع صورته وأشكاله ، ويدفعه سواء وقع على أهله أو المعتنقين ديناً غير دينه .

ولقد قال النبي عن حلف الفضول الذي كان معقوداً في الجاهلية : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْرَ

النَّعَم ، لو أدعى به في الإسلام لأجبت ^(١) .
فإذا كان في هذا الحلف الذي لا يجب محمد أن تكون له النوق الحسنات
وأن ينتقضه ؟ إنه الحلف الذي اجتمع عليه بنو هاشم والمطلب ، وأسد بن
عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ؛ وتحالفوا فيه على « رد المظالم
وإنصاف المظلوم من الظالم » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وقتها في الخامسة
والعشرين قبل النبوة .

ولم يكن يوماً من أغراض الحرب في الإسلام إكراه الناس على اعتناقه ،
لا في مبادئه النظرية ولا في واقعه التاريخي . اللهم إلا فلتات عارضة وقعت
خطأ ممن لم يفهموا حقيقة الدعوة الإسلامية ، ولا تحسب على الدين لأنها ليست
من هذا الدين ؛ وما انتشر الإسلام بالسيف كما يصممه الجاهلون به ، والمعادون
له ، وما كانت الحرب رائده ووسيلته وطبيعته في دعوته .

يقول « سير . ت . د . أرنولد » في كتابه : « الدعوة إلى الإسلام »
ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه في ص ٥١ :

« ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه
المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة ، واستمر
في الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية
التي اعتنقت الإسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة ، وإن
العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على
هذا التسامح » .

(١) رواه ابن هشام في السيرة من حديث ابن إسحاق .

ويقول أيضا قبل ذلك في صفحة ٤٨ :

« ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام ، فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم . وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبي وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم » .

وفي هذا وفي أمثاله ما يدفع تلك الدعوى ؛ وما يحزم بأن حروب الإسلام لم تكن لإكراه الناس على الدين ، ولا للاستعمار والاستغلال والإذلال . إنما كانت إعلاء لكلمة الله في الأرض بإبصال الخير الذي جاء به الإسلام للناس عن طريق الرضى والإقناع ، وتحقيق العدالة والأمن والسلام .

ولا يتم الحديث عن طبيعة السلام في الإسلام حتى نشير إلى المجال الذي يعمل فيه الإسلام . إن الإسلام في طبيعته السككية في النظرة إلى الحياة ، لا يجزئ السلام ، ولا ينشده في حقل مفرد من حقول الحياة . إنما يجعل السلام كله وحدة ، ويحاول تحقيقه في كل حقل ، ويربط بينه وبين الفكرة السككية عن الكون والحياة والإنسان . وبذلك تصبح كلمة « السلام » التي يعينها الإسلام ذات دلالة أعمق وأشمل من معناها الذي تتعارف عليه الدول في هذه الأيام . فهو السلام الذي يحقق كلمة الله في الأرض من العدل والأمن لجميع الناس ، لا مجرد الكف عن الحرب بأي ثمن ، مهما يقع في الأرض من ظلم ومن فساد !

وحين يحاول الإسلام إقرار السلام الشامل وفق مبادئه العليا في تحقيق
كلمة الله ، لا يبدأ به في مجال السلام الدولي ، فتلك نهاية المرحلة لأبدايتها .
وما السلام الدولي إلا الحلقة الأخيرة التي تسبقها حلقات .
إن الإسلام يبدأ محاولة السلام أولاً في ضمير الفرد ، ثم في محيط الأسرة ،
ثم في وسط الجماعة . وأخيراً يحاوله في الميدان الدولي بين الأمم والشعوب .
إنه ينشد السلام في علاقة الفرد بربه ، وفي علاقة الفرد بنفسه ، وفي علاقة
الفرد بالجماعة . ثم ينشده في علاقة الطائفة بالطوائف ، وعلاقة الأفراد
بالحكومة . ثم ينشده في علاقة الدولة بالدول بعد تلك الخطوات .
وإنه ليسير في تحقيق هذه الغاية الأخيرة في طريق طويل ، يعبر فيه من
سلام الضمير ، إلى سلام البيت ، إلى سلام المجتمع ، إلى سلام العالم في نهاية
المطاف . فَلَنَقِفُ فيما يلي خطوات الإسلام في سبيل السلام .

سلام الضمير

لا سلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع بالسلام . . تلك هي فكرة الإسلام . . فإذا شاء أن يقيم السلام العالمى على أساس ركين ، فهو يبدوه هنالك فى قرارة الضمير .

وللفرد فى النظام الإسلامى قيمة أساسية ، فهو اللبنة الأولى فى بناء الجماعة ، وفى ضميره تنبت البذرة الأولى للعقيدة ، وفى سلوكه تستحيل العقيدة للمكنونة حقيقة ظاهرة ، بل يستحيل هو ذاته ترجمة حية لهذه العقيدة .

وفى ضمير الفرد يغرس الإسلام بذرة السلام . السلام الإيجابى الذى يرفع الحياة ويرقيها ، لا السلام السلبى الذى يرضى بكل شئ ، ويدع المبادئ العليا تداس فى سبيل العافية والسلامة ! السلام النابع من التناسق والتوافق ، المؤلف من الطلاقة والنظام ، النائىء من إطلاق القوى والطاقت الصالحة البانية ، ومن تهذيب النزوات والنزغات ، لا من الكبت والتنويم والجمود . السلام الذى يعترف للفرد بوجوده وبنوازعه وأشواقه ؛ ويعترف فى الوقت ذاته بالجماعة ومصالحها وأهدافها ، وبالإنسانية وحاجاتها وأشواقها ، وبالدين والخلق والمثل . . . كلها فى توافق واتساق .

المنطق والعقيدة

يمقد الإسلام السلام بين المنطق الإنسانى والعقيدة الدينية منذ الخطوة الأولى . فالإسلام عقيدة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض .

الله .. ليس كمثله شيء . وهو خالق كل شيء . ومحمد بشر كسائر البشر
أوحى إليه أن يهذى الناس إلى عبادة هذا الإله الواحد بلا شريك . ليس الله
واحدًا في ثلاثة ولا ثلاثة في واحد ، وليس والدًا ولا مولودًا . . . ومحمد ليس
بشرًا وإلهًا ، وليس رسولًا في الأرض وربًا في السماء .

في الإسلام لا شيء من الألفاظ والمعانيات ، التي تهرب من الضوء ،
وتدع المنطق الإنساني في حيرة ، والضمير الفردى في قلق . لأنه إما أن يؤمن
فيهمل منطقهم ، وإما أن يعتصم بالمنطق فيقوده إلى الكفر والإلحاد ، وإما أن
يبقى متأرجحًا بينهما ، ممرقًا مضطر بالآخر على قرار .

وفي الإسلام ليس من العسير تصور بشر يتصل بالقوة الكبرى ؛
ففي روح الإنسان تلك الطاقة التي تصله بتلك القوة ؛ وأفراد عاديون يحسون
في تجاربهم العادية تلك الصلة ؛ ولكن أرواحهم لا تثبت لهذا الاتصال
إلا لحظات خاطفات . أما أرواح كأرواح محمد وعيسى وإبراهيم ، فلا يتعذر
تصور استمداها من هذه القوة وتلقيها .

وإذا قيست صعوبة تصور الوحي على هذا النحو بصعوبة تصور اللاهوتية
والناسوتية في أقنوم ، وتصور ثلاثة في واحد ، وتصور نزول الإله إلى الأرض
في صورة ابته ليعانى الآلام تخليصًا للبشرية من خطيئة آدم . . . إلى آخر
أوهام الكنيسة والمجامع التي دسستها في المسيحية . إذا قيست تلك الصعوبة
إلى هذه الصعوبات فإنها تبدو يسيرة يسيرة .

لقد دخلت هذه الأساطير إلى المسيحية ، وهي منها بريئة ، فالمسيحية
في منابعها الأولى صورة من الدين الواحد الذي أرسل الله به رسله جميعا .

دين التوحيد الذى لا يجعل لله شريكا ، والذى يطلق البشر من العبودية لشريك . ولكن الرومان الذين دخلوا فى المسيحية ومعهم آلهتهم المتعددة لم يطيعوا أن يخلصوا سريرتهم لهذا التوحيد فى المسيحية ، ومن ثم بدأت تلك الأساطير ؛ شيئا فشيئا صارت هى المسيحية كما تعرفها الكنيسة ، أى المسيحية الرسمية التى يشرد من لا يعتنقها ويكتب عليه الحرمان !

ولكن صيرورة المسيحية إلى هذا الوضع أوقعت المنقذين من المسيحيين فى قلق نفسى وفكرى دائم . فهم إما أن يستجيبوا لمنطقهم فيخرجوا من عداد المؤمنين إلى عداد الملحدين . وإما أن يلغوا عقولهم ليحتفظوا بعميدة هذه أساطيرها التى تحميها الكنيسة . وإما أن يكلوا أنفسهم إلى القلق الروحى الدائم بين جوعتهم إلى العميدة ، ومنطقهم الذى ينفر من تلك الأساطير .

وفى الإسلام كاد يحدث ما حدث فى المسيحية ، فالرغبة البشرية فى الأساطير والتهاويل ظلت تحاول أن تغشى على وضوح الإسلام وبساطته ، وظلت تصوغ حول محمد بن عبد الله ، وحول المختارين من آل بيته وبخاصة الحسين رضى الله عنه . . ظلت تصوغ الخرافات والهالات التى تأباه طبيعة الإسلام ؛ وظلت تجد عند العامة قبولا لا تجده حقائق الإسلام الواضحة البسيطة ! ولكن بناء الإسلام ذاته بقى سليما ، وأصوله بقيت محفوظة ، فلقد كانت طبيعته من الوضوح والبساطة بحيث بقيت هذه التهاويل والأساطير تتناثر على هامشه ، ولا تدخل فى بنيته .

فى المسيحية قادت الكنيسة ذاتها هذه التهاويل وتبنتها ، لأنها تريد

من سلطانها على نفوس الجماهير ؛ وكان تعقيد العقيدة ، وإحاطتها بأجواء من الغموض غرضاً مقصوداً لتكون للكنيسة في حياة الناس وظيفة . وإلا فلوظلت العقيدة المسيحية بسيطة كما هي ، واضحة كما هي ، مفهومة كما هي . . . فإذا يصنع رجال الدين ؟ وما حاجة الناس إليهم إذا استطاعوا هم بأنفسهم أن يفهموا دينهم ، وأن يمارسوا شعائرهم ، وأن يتصلوا مباشرة بخالقهم ؟ . . . إنه لا بد من هذا الغموض . لا بد من هذه الرؤى والأحلام والأساطير ، كي يلجأ الناس إلى الكنيسة دائماً ، تحل لهم رموز العقيدة ، وتكشف لهم بحساب عن الأسرار . وبذلك يبقى سلطان الكنيسة كاملاً ، وتبقى سلطتها كاملة ؛ ولا يملك الناس أن يخطوا خطوة في حياتهم الدينية ، وفي حياتهم الروحية إلا ومعهم كاهن أوقديس !

أما في الإسلام فلم تكن هناك كنيسة . لم تكن هناك هيئة « اكليروس » لا تقام شعائر الدين بدونها ، ولا يتصل الفرد بخالقه إلا عن طريقها . والإسلام يعد نفسه منقذاً للفكر البشري لا من الأسطورة والوهم وحدهما ، بل كذلك من ضغط المعجزة الخارقة للطبيعة ؛ فلم يشأ لهذا أن يجبر الفكر البشري على الإذعان له بالخوارق الطبيعية . إنما جعل وسيلة إلى الإدراك البشري وضوحه وبساطته وحقيقته . . . وحينما اتفق أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم — ابن محمد الرسول — وضع الناس للحادث ، وقالوا : كسفت الشمس لموت إبراهيم . . . بادر محمد صلى الله عليه وسلم لنفي هذه الأسطورة ، كي لا تغشى وضوح العقيدة ونصوعها ؛ وأعلن أن الشمس من آيات الله لا تكسف لموت بشر . وبذلك الحزم الصارم ، والصدق الناصع ،

نهذه الناس عن الاستسلام للرجبة السكامة فى نفوسهم فى التهاويل الغامضة ؛ ولم يسايرها ولم يستغلها لنشر دينه الجديد ، لأنها فى صميمها مناقضة لطبيعة الدين الجديد .

وبهذه النصاعة وهذا الوضوح يعقد الإسلام السلام بين منطق الفرد وعقيدته ؛ فلا يثور فى نفسه ذلك القلق المضنى الذى تثيره مسيحية الكنيسة المحرفة ، ونظائرها من العقائد التى تمتزج فيها الحقيقة بالأسطورة ، ويختلط فيها الحق بالباطل ، وتتوارى من النور والوضوح ، فلا تعيش إلا فى جو البخور والتراتيل ، لأنها تهرب من الضوء وتخشى أن تلقاه .

نعم . إن القطيع البشرى كان فى حاجة ملحة ، وهو يواجه الكون العريض ، والطبيعة الهائلة . . أن يحس إلهه قريباً منه ، معنياً بآلامه وآماله ، فجاء الكثير من أساطير المسيحية الكنسية ليلبى هذه الرغبة العميقة ؛ فأنزل الله من عليائه ليحتمل الآلام تكفيراً عن خطيئة آدم ؛ أو جعل ابنه الوحيد يحتملها رحمة بالبشر . . إلى آخر تلك الألغاز الحيرة المنطق ، المقلقة للضمير . فاما الإسلام فيلبى هذه الحاجة ، ولكن بما يتفق مع الوهية الإله ووحدايته . يليها بإشعار الإنسان أن الله قريب منه ، مستجيب إليه ، لا يغفل عن رعايته ولا ينساه : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » ^(١) . « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » ^(٢) . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر »

إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانَ» (١). «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٢).
وهكذا يجد الإنسان صلته الوثيقة بالله ، ويحس رحمته ورعايته واستجابته
دون ما حاجة إلى الأساطير الخيرة للعقول .

الاشواق والضرورات

كذلك يسعد الإسلام السلام بين ضرورات الفرد الملحة ، وأشواقه
الروحية المرفرفة . ولكنه لا يمتدده على حساب النوازع الضرورية ، ولا على
حساب الأشواق الروحية . إن فكرته في الوحدة السكلية تطبع نظرتة إلى
الفرد الإنساني ، ونظرتة إلى دوافع الحياة الممثلة فيه . والضرورات والأشواق
كلتاها تندمجان في تناسق ، فلا يضيع من طاقتهما الدافعة إلا ما يعارض هذا
التناسق ، وما يعوق نمو الحياة الكامل .

ومن ثم يعترف الإسلام منذ اللحظة الأولى بضرورات الحياة الأصلية
الكامنة في طبيعة البشر ، ولا يرى فيها — في حالة الاعتدال السوى —
ما يتعارض مع الرغبة في التسامى ، وهي كذلك أصيلة كامنة في طبيعة البشر .
وحين يدعو الإسلام إلى التطهر الروحي ، والانطلاق من قيود الشهوات
فإنه لا يعنى كبت الدوافع الحيوية ، وإزهاق الطاقات الحية . إنما هو يدعو
إلى أن يملك الإنسان قياد نفسه فلا يكون عبداً مملوكاً لشهواته ، ولا حيواناً
مدفوعاً ببنواته . والإرادة هي مفرق الطريق بين الإنسان والحيوان في المتاع :
« وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » (٣) .

فإذا ملك الإنسان أمره فإن عليه أن يعرف لبدنه حقه ، وعليه أن

يتمتع نفسه بطيبات الحياة ، وأن لا يحرم ما أحله الله . وما أحله الله يشمل كل ما تطلبه البنية الصحيحة السوية من لذة ومتاع .

إن دوافع الحياة الطبيعية كلها ليست مستقرة في عرف الإسلام ؛ والرغبة في الامتداد ليست سقوطاً يترفع عنه المتطهرون . فالرغبة في امتداد الحياة تتفق مع مشيئة الله في خلق الحياة ؛ وكل ما يريد الله هو ترقية الحياة لا مجرد امتدادها . وهذا الامتداد هو وسيلة الارتقاء ، وليس مضاداً لفكرة الارتقاء . ومن ثم فالإسلام ينسق الدوافع الحيوية في بنية البشر ، مع الأشواق الروحية العميقة في الفطرة ؛ ويصوغ من كليهما وحدة ، لا تفرط فيها ولا إفراط ، ولا صراع في داخلها ولا اصطدام .

والدعوة إلى الاستمتاع في الإسلام تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى التسامى ؛ فتنشأ من بينهما صورة للاعتدال ، البرىء من الفحش ، البرىء من الحرمان : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالنَّبْيَ بَغْيِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (١)

والفواحش من الفحش وهو تجاوز الاعتدال ، وشأنه شأن البغي بغير

الحق وشأن الإشراف بالله . . كلها مفسد للفطرة ، مناف للعدالة ، مخالف
لناموس الحياة المتناسق .

وكذلك تجد الطاقات البشرية السوية مجالها للعمل في بناء الحياة وفي ترقية
الحياة ؛ ولا يظل الفرد ممزقا بين واقع حياته الضروري لبقائه وبقاء الحياة معه ،
وبين الأشواق العلية التي تهتف له وتناديه .

وكذلك يتم التناسق بين المحافظة على الحياة وترقية الحياة . . يتم هذا
التناسق في ضمير الفرد تبعاً لعقيدته ، كما يتم في محيط الجماعة تبعاً لسلوكه ؛
فيجد الفرد نفسه في سلام داخلي مع ضميره ، وفي سلام خارجي مع سواه .

وكذلك يعالج الإسلام أسباب « العقد النفسية » التي أقام عليها « فرويد »
وأتباعه مذهبهم ، والتي اعتبروها ضرورية لازب لا مفرّ منها ، ولعنة يفرضها
المجتمع على الفرد بقيوده وتعاليمه ، وبكبت الرغبات التي ينوب ضمير الفرد
— أو الذات العليا — عن المجتمع في فرض الرقابة عليها . . هذه العقد النفسية
تقل أو تنمحى في جو العقيدة الإسلامية ، التي تعترف منذ الخطوة الأولى
برغبات الفرد وضروراته ، ولا ترى فيها قذارة ولا انحطاطاً ؛ وتيسر له السبل
لتصريفها تصريفاً مأموناً معترفاً بشرعيته ومجديته وبنظافته كذلك —
وهذا هو المهم — ما دام في الحدود السوية للمأونة ، التي لا تؤدي إلى انحلال
في شخصية الفرد ، ولا إلى انتكاس حيواني في محيط المجتمع .

ويلاحظ الإسلام هذه الرغبات الطبيعية البريئة ملاحظة دقيقة ، فيقدر
أن للمرأة في بعض الأحيان رغبات في المتاع والزينة غير رغبات الرجل ،
ويبيح لها أحياناً ما يحرمه عليه ، مراعاة لفطرتها الأشوية في التزين والتجمل .
يبيح لها خاتم الذهب ولباس الحرير على حين ينهى الرجل عن هذا التطري ،

ويعده بالقياس إليه ترفاً مؤذياً . وكل ما يحرمه على المرأة في هذا المجال هو التبرج ، لأن المسألة هنا تخرج من دور المتاع البريء إلى دور الاستشارة الحيوانية . وهذا هو مفرق الطريق !

وبذلك تنحصر الأسباب المؤدية إلى العقد النفسية — في جو العقيدة الإسلامية — في حالات الشذوذ المرضى . أما الطبائع السوية فيتم فيها التوازن والتناسق ، وتحقق عوامل القلق ؛ فينعم الفرد المسلم في نفسه بالأمن والسلام .

الخطيئة والتوبة

ثم لا يقف الإسلام عند حد الاعتراف للفرد بضروراته وتنسيقها مع أشواقه .. بل يخطو وراء ذلك خطوة أخرى واقعية بصيرة .. إنه يعترف للفرد بدوافع الخطأ والخطيئة ؛ فأما الخطأ والنسيان فمعيان من الموازنة إعفاء : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ^(١) » وأما الذنب والخطيئة فباب التوبة منهما مفتوح في كل لحظة ، يدلف إليه من يشاء ليستغفر ويتطهر ، فلا يطرده من رحمة الله طارد ، ولا يوصد دونه ودون الله باب ، ولا يقوم بينه وبين ربه وسيط . فإذا ما انزلق الفرد إلى الخطيئة لم تقطع دونه السبيل ، ولم يصبح ضائعاً مطروداً ملعناً ، ولم يستبد به الظلام الكافر العاثر .. فهناك النور ، وهناك الطريق ، وهناك اليد الحانية الرحيمة : يد التوبة النذية ، تمنحه البرء والعافية ، وتغمره بالروح واللال : « قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم

(١) من حديث ذكره القرطبي في التفسير وقال : وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . وقد ذكره الأصيلي في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع .

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ : إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ^(١) .
 إِنَّ إِلَهًا فِي الْإِسْلَامِ لَا يَطَّارِدُ الْمَذْنِبَ مَطَّارِدَةً أَبَدِيَّةً ، حَتَّى لَا يَقِيلَ لَهُ عَثْرَةٌ ،
 وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ تَوْبَةٌ ، إِلَّا أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ ، أَوْ يَعْذِبَ جَسَدَهُ ، أَوْ تَرْتَكِسَ رُوحَهُ
 فِي أَجْسَامٍ قَذِرَةٍ رَدِيئَةٍ حَقَبًا وَأَحْيَالًا . وَكَفَّارَةُ الْخَطِيئَةِ لَا تَقْتَضِي أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ
 مِنْ عِلْيَانِهِ — سَبْحَانَهُ — لِيَصْلُبَ وَيُقَاسَى الْآلَامَ ، تَسْكَفِيرًا عَنْ خَطِيئَةٍ
 الْبَشَرِ — وَهُوَ خَالِقُ هَؤُلَاءِ الْبَشَرِ ، وَفَادِرُ عَلَى أَنْ يَطْهَرَهُمْ بِغَيْرِ صُلْبِهِ — تَعَالَى —
 وَتَعْذِيبِهِ . وَهِيَ كَذَلِكَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى كَاهِنٍ وَكَرْسَى اعْتِرَافٍ ، أَوْ تَبْقَى مَعْلُوقَةً
 عَلَى رَأْسِ الْفَرْدِ لَا مَخْلَصَ لَهُ مِنْهَا وَلَا فِرَارَ . . . !

إِنَّهُ بِحَسَبِ أَى إِنْسَانٍ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى رَبِّهِ مُبَاشَرَةً ، نَادِمًا تَائِبًا ، غَيْرَ لَاحِجٍ
 فِي خَطِيئَتِهِ وَلَا سَادِرٍ ؛ فَيُفْتَحُ لَهُ اللَّهُ بَابَهُ ، وَيَتَقَبَّلُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَيَعْنِجُهُ رَحْمَتُهُ
 وَعَفْوُهُ . وَبَابُ الرَّحْمَةِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مَفْتُوحٌ ، وَلَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَلَا قَنُوطٌ ؛
 فَلْيَدِقْ بَابَهُ مُسْتَأْذِنًا كُلَّ طَارِقٍ ، بَلْ لِيَدْلِفْ إِلَيْهِ دُونَ اسْتِئْذَانٍ : « وَلَا تَيْسُّوا
 مِنْ رُوحِ اللَّهِ . إِنَّهُ لَا يَمِئْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ^(٢) » .

وَيَذْهَبُ الْإِسْلَامُ فِي هَذَا مَذْهَبًا بَعِيدًا ، حَتَّى لِيَحْسِبَهُ الْمَرْءُ عِنْدَ النُّظَرَةِ
 السَّرِيعَةِ يَزِينُ لِلنَّاسِ الْخَطِيئَةَ لِيَتُوبُوا مِنَ الْخَطِيئَةِ ! . . . يَقُولُ الرَّسُولُ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَابُونَ ^(٣) »
 وَيَقُولُ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَمْ تَذْنُبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يَذْنُبُونَ
 وَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ ^(٤) » .

(٢) يوسف ٨٧

(١) الزمر ٥٣

(٤) رواه مسلم .

(٣) أخرجه الترمذى .

وهو لا يزين الخطيئة هنا ، ولكن ييسر التوبة ، ويملا نفوس الخاطئين بالرجاء ، وينير لأرواحهم الطريق ، ويعني هذه الأرواح المتعبة الخائفة بالراحة والأمان . فلا تظل أبدا قلقة حائرة ممزقة لا يقر لها قرار .

ذلك في الوقت الذي يفرض على ضمير الفرد اليقظة ؛ ويكلفه على نفسه الرقابة ؛ ويحذره خدعة الشهوات المحرمة ، وفتنة النساء والأموال والأولاد ؛ ويصور له الشر شيطانا يوسوس له ، ويترصد به : « زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَلِيلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ^(١) » . . « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيَبْدِيَ لَهَا مَا وُورَى عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا . وَقَالَ مَا نَهَاكَمَا رَبُّكَمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنْ لَسَا مِنْ النَّاصِحِينَ ، فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوَآتُهُمَا ، وَطَقَقَا خُصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا : إِنْ الشَّيْطَانُ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » ^(٢) .

ولكن الإسلام لا يصور الصراع بين الإنسان والشیطان في هذه الصورة ليوقع الناس في اضطراب نفسي دائم يمزق شخصياتهم ، ويبعث قواهم ، بل يصوره ليدعوهم إلى اليقظة لدوافع الشر والخطيئة ، وليتمهي إلى تنبيه أبناء آدم وحواء ألا يستسلموا للإغراء والإغواء :

« يا بني آدم لا يفتننك الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما . إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ^(١) » .

وفي ذات الوقت يقرر أن خطيئة آدم لم تظل مصلنة كالسيف القاطع على رؤوس أبناء آدم ؛ ولم تتطلب كفارة عجيبة ينهض بها الله في صورة ابن الله . فالأمر أيسر من هذا كله وأهون : « فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم ^(٢) » .

وبعد فهذا اليسر كله لا يفوت إلا من يصر على الخطيئة ؛ وهذه الأبواب المفتحة كلها لا تغلق إلا في وجه السادر في الخطيئة : « بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ^(٣) » . ذلك أن الخطيئة السادرة تغلق القلب وتطمس الضمير ؛ ومن ثم توصل الأبواب وتحقق العقاب .

وما يدع هذه الفرص المتاحة كلها تغلق منه إلا من لا يستحق الرحمة ومن لا يريد لها . فأما العديد من الخطائين التوابين ، فالإسلام يمنح ضائرهم السلام ويهب أرواحهم الاطمئنان ، ولا يطلب منهم أكثر من اليقظة والمحاولة . واليقظة

والمحاولة لا تميزان الشخصية ، ولا تورثان القلق . ولقد عرف الإسلام في واقعه التاريخي رجالا بلغت يقظة ضمائرهم حد الإرهاق ؛ ولكن أرواحهم كانت في ذروة الاطمئنان ؛ وكانوا هم من الواقعيين العاملين المنشئين كأعظم ما يكون الرجل الواقعي العملي للنشء في الحياة . وعلى رأس هؤلاء جميعا أبو بكر وعمر منشئا الإسلام وكافلاه بعد رسول الله . وإنهما لنموذجان كاملان ، لليقظة المرفهة في الضمير ، والاطمئنان الوثائق في الشعور ، وتجمع الشخصية ووحدة الاتجاه في واقع الحياة .

التكليف والطاقة

يلاحظ الإسلام بصفة عامة ألا يكلف الفرد فوق طاقته ، في شرائعه أو شعائره ؛ فالتكليف فوق الطاقة ، إيجاباً أو منعاً ، لا ينتهي إلا إلى تسامح ثلاث :

١ — إما الإرهاق والعسر ، والحرمان والكبت ، وتخطيم الذات الإنسانية تحت الكبت أو الإرهاق ، وتعويق الحياة من النمو المظرد ، والرق المعتدل .

٢ — وإما النهور والجماح والخروج على الأوامر والنواهي ، والعداء الجامح الذي يقود صاحبه إلى الغلو في الإباحة ، كرد فعل للكبت أو الإرهاق .

٣ — وإما القلق النفسي الدائم ، والشعور دائماً بالخطيئة أو التقصير ، فيما لا خطيئة فيه ولا تقصير . وهو عذاب دائم لا يطاق .

ولذلك يحرص الإسلام على أن تكون تكاليفه كلها في حدود الطاقة ؛ ويرعى الطبيعة البشرية بكل إمكاناتها وهو يشرع إيجاباً وتحريماً ؛ ثم يدع

لها أن تتطوع بالأكثر فوق التكاليف المفروضة، إن استطاعت، في غير ضيق ولا حرج ولا مشقة . وبذلك يصونها من التحطم ويصونها من الجموح ، ويصونها من القلق الذي لا يريح .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ^(١) « وما جعلَ عليكم في الدين من حَرَجٍ » ^(٢) . . . ويقول الرسولُ العظيم : « إن هذا الدين يسر لا يسر لا عسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » ^(٣) وينهى صلى الله عليه وسلم عن التنطع والتشدد في تفسير الدين وفي القيام بتكاليفه فيقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم » ^(٤) أو يقول : « إن هذا الدين ممتن فأوغل فيه برفق » ^(٥) . ويشبه المتشدد المهرق لنفسه بالمسافر الذي يهلك راحلته ولا يبلغ غرضه : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ^(٦) .

وفيا مضى أمثلة على هذا القصد والاعتدال ومراعاة الطاقة، وبخاصة في التنسيق بين الضرورات والأشواق ، وفي الاعتراف بدواعي الخطأ والخطيئة ، ولا بأس من أن نسوق منه ناحية أخرى .

إن انفعالات الغضب ووجدانات الغيظ انفعالات ووجدانات لا سبيل إلى محوها أو قتلها في النفس البشرية لأسباب شتى . بعضها ينبع من الشعور بالذات ، وبعضها ينشأ من تصادم المصالح ، وبعضها يأتي من اختلاف المشاعر والمسالك . . . والإسلام يدعو إلى السامحة والرفق والبشاشة ؛ ولكنه لا يلغى من حسابه أن مشاعر الغضب والغيظ مشاعر طبيعية ؛ فلا يكلف الناس محوها

(٢) الحج ٧٨

(٤) أبو داود

(٦) البخاري

(١) البقرة ٢٨٦

(٣) البخاري والنسائي

(٥) البخاري

من النفوس محوًّا ، ولا يعدها في ذاتها خطيئة وإثمًا ؛ إنما يدعو إلى كظمها وضبطها ، لا على أن تستحيل أحقاداً وضغائن في الصدور ، بل على أن يكون هذا الضبط سبيلاً إلى التسامى والتصعيد . وفي هذا السبيل يأخذ النفس البشرية بالترغيب والتحضيض لا بالأمر والتكليف : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُور ^(١) » . . « وَالسَّكَاطِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ^(٢) » وهكذا يقرن الصبر بالغفران ، ويتبع الكظم بالعفو ، لأن الصبر والكظم إن لم يوجها إلى الغفران والعفو فقد يؤديان إلى الضعينة والحقد ؛ والإسلام يكره الضعينة وينفر من الحقد ، فيوجه ويرغب في العفو والسماحة . ليغسل النفوس من الغيظ والغضب ، قبل أن يستحيل أحقاداً وضغينة . ويجعل دعاء المؤمنين المحبوب « وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ^(٣) » ويصف أهل الجنة حين يصفهم بالرفعة والسمو فيقول : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ^(٤) » ويتحدث عن « عباد الرحمن » فيقول : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا : سَلَامٌ ^(٥) » أي قابلو خطاب الجاهلين الجافي الذي لا تهذيب فيه بالتجمل والسماحة .

والإسلام يكره أن تقع الخصومة بين الفرد والفرد ، وأن تسودهما القطيعة ، ولكنه يقدر أن شعور الغضب لا يمكن محوه ، ولا يعده ذنباً بمجرد وقوعه ، ولا يقول كالسيحية : « من غضب على أخيه باطلاً كان مستوجب الحسم » فإذا دعا إلى الصلح والوئام ، أعطى فرصة من الزمن تهدأ فيها الثورة ، وتخمد فيها النزوة ، وترجع فيها النفس إلى الهدوء والسكينة ؛ فيمنح كلا المتخاصمين

(١) الشورى ٤٣ (٢) آل عمران ١٣٤ (٣) الحشر ١٠

(٤) الأعراف ٤٣ (٥) الفرقان ٦٣

ثلاثة أيام ، يفتأ فيها غضبه ، وتسكن فيها نفسه ، قبل أن يلزمهما بالسلام بعد الخصاص : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ^(١) » .

والإسلام يكره الجزع الذى تهاوى بسببه النفس ، ويتداعى إيمانها بالله واحتمالها للمكروه ، لأن الصبر والتماسك مقياس القوة ومقياس الإيمان ، فيقول الرسول الكريم : « ليس منّا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية ^(٢) » ولكنه لا يعد الحزن والدمع جريمة ، ولا يقهر النفس على السكون الكامل الجامد لأنه فوق الطاقة ، وربما قاد إلى المساواة والتعجير .
فها هو ذا محمد رسول الله نفسه تدمع عيناه على ابنه إبراهيم ، ويناجيه وهو مسجى : « يا إبراهيم إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ^(٣) » . . . إنما الصبر الذى يتطلبه الإسلام هو صبر التأسي والتحمل وتذكر الله ورد الأمر إليه في الكروب : « وانبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ^(٤) »

وهكذا .. وهكذا .. لا يكلف الإسلام نفساً إلا طاقتها ؛ فلا تشكل عن التكليف ، ولا تنوء تحتها ، ولا تبقى قلقة ممزقة بين التكليف والطاقة ، بل تنعم بالاستجابة ، وتطمئن بالطاعة ، وتقرّ عيناً بها وتستريح .

(١) البخارى

(٢) الحنسة إلا أبا داود

(٣) رواه الأربعة

(٤) البقرة ١٥٥ — ١٥٧

الاطمئنان إلى الله

ويسكب الإسلام في النفس السكينة والأمن والسلام ، بالركون إلى الله والاطمئنان إلى جواره ، والثقة في رحمته ورعايته وحمايته . وهي خاصية العقيدة الدينية التي يشارك الإسلام فيها سائر العقائد السماوية . إنما يتميز الإسلام بأن العلاقة فيه مباشرة بين الرب والعبد ، لا يدخل فيها كاهن ولا قسيس ، ولا تتعلق بإرادة مخلوق في الأرض ولا في السماء .

في ظل هذه الصلة المباشرة يحس الفرد أنه يرتكن إلى القوة التي ليس فوقها قوة ، والتي لا تعدلها قوة . وهي أبدا حاضرة ، وفي متناولها أن يركن إليها ويستعينها ، متى أخلص نفسه لها ، فلم يشرك بها في شعوره قوة ، ولم يحسب لغيرها في ضميره حسابا : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ^(١) » .. « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ^(٢) » .

وفي ظل هذه القوة تتضاءل قوى الأرض جميعا ؛ وتتساقط أغشية العظمة الكاذبة والجبروت الزائف ؛ ويبدو الأقوياء والأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ والسلطان جميعا ، أقراما ضعافا ضلّالا لا يملكون لإنسان نفعا ولا ضرا : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ^(٣) » .

فكل قوى الأرض لا تقدر على ذبابة : « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .. ضعف الطالب والمطلوب ^(٤) » .

(٢) البقرة ١٨٦

(٤) الحج ٧٣

(١) غافر ٦٠

(٣) التوبة ٥١

وفي ظل هذه القوة يأمن الفرد على رزقه ومكائنه ، أمنه على حياته وسلامته ،
فما من قوة وما من أحد يملك أن يضاره في رزق ولا في مركز ولا في شيء
من أمور الدنيا وأمور الآخرة ؛ وإنه لقوى قوى ، وكفء لكل قوة تتصدى
له ، لأنه يستمد من تلك القوة الكبرى التي لا ينضب لها معين ، والتي
تصرف السكون كله ، وتصرف الجبابرة والسلطين : « قل : اللهم مالك الملك
تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء
بيدك الخير . إنك على كل شيء قدير ^(١) » .. « إن ينصر كم الله فلا غالب
لكم ، وإن يخذلكم فن ذا الذي ينصر كم من بعده ^(٢) » .. « من كان يريد
العزة فله العزة جميعا ^(٣) » .. « والله العزة ورسوله وللمؤمنين ^(٤) » ..
« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم
من السماء والأرض . لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ^(٥) » .
فإذا تكاثفت قوى الأرض جميعا لتبغى به الأذى ، فما هى بقادرة
إلا أن يشاء الله . فإذا شاء الله أن يناله الأذى ، فهناك حكمة سامية لله ،
وهناك خير أعلى من خير الفرد المحدود ؛ بل هنالك خير لهذا الفرد قد لا يعلمه
ال لحظة ، ولكن الخالق الأعظم المحيط بالكائنات يعلمه : « وعسى أن تكرهوا
شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم
لا تعلمون ^(٦) » .

وما على الفرد إلا أن يسلم نفسه لله ، وإلا أن يجعل رضى الله غايته ، وإلا
أن يجاهد ليجعل كلمة الله هى العليا ، وليحقق إرادة الله فى الأرض ، ولا يستسلم

(١) آل عمران ٢٦ (٢) آل عمران ١٦٠ (٣) فاطر ١٠
(٤) المنافقون ٨ (٥) فاطر ٣ (٦) البقرة ٢١٦

يوماً ولا يهن ، ولا يأسى على ما فاتته في هذا ولا يتبرم ؛ وكل ما قدمه في هذا السبيل فهو محفوظ له عند ربه ولن يضيع : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون ^(١) » .. « والله معكم ولن يتركم أعمالكم ^(٢) » .

والله بعد ذلك كله حفي به مكرم له : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ^(٣) » وهو به رحيم وعليه حان . إن أثم قبل توبته وغفا عنه ، أو حاسبه على السيئة سيئة ؛ وإن ضل هداه وأرشده ؛ وإن أحسن ضاعف له الجزاء ؛ وما يحق عقابه الشديد إلا على الذين يلجون في الغواية : « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ^(٤) » .. « من جاء بالحسنة ، فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلاًها وهم لا يظلمون ^(٥) »

وبذلك كله تطمئن النفس وتسكن وتثق ، فلا تهزها الأحداث ، ولا تذهب بها الأهوال ، ولا تفزع من شيء ولا تخاف : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب ^(٦) » .

الضمانات والتأمينات

وبعد فالإسلام بحسب نظرته الكلية إلى الحياة ودوافعها ودواعيها ، وضرواتها وأشواقها ، ومادياتها وروحياتها .. لا يكل الفرد إلى عقيدته الروحية في الضمير ، بل يعينه عليها بتحقيق أسبابها في عالم الواقع . فعالم الواقع في الإسلام إن هو إلا الترجمة العملية لعالم الضمير .

(١) آل عمران ١٦٩ (٢) محمد ٣٥ (٣) الاسراء ٧٠
(٤) غافر ٣ (٥) الأنعام ١٦٠ (٦) الرعد ٢٨

ومن ثم فهو لا يقف عند توفير الضمانات للفرد باطمئنانه إلى الله . بل يشرع لحياته الواقعة ما يكفل الضمانات المطمئنة . فلا يحس الفرد من حوله إلا أمناً وعدلاً وكفاية للضرورات .

إن الإسلام يؤمن الفرد من كل اعتداء . اعتداء فرد مثله ، أو اعتداء حاكم عليه ، فهو يشعر أنه يعيش في وسط يحبه ولا يعاديه ، ويحرص على ذاته وماله وعرضه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ^(١) » .. « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ^(٢) » . « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه ^(٣) »

وليس للحاكم عليه من سلطان إلا في حدود القانون . القانون الإلهي الذي يخضع له كما يخضع السلطان سواء . والذي لا يستمد من هوى الحاكم ، ولا هوى طبقة ولا جماعة ، ولا يسن ليحقق مصلحة الحاكم أو طبقة أو جماعة . إنما شرعه الله إله الجميع ومالك الجميع لمصلحة الجميع . والخضوع له خضوع لله ، لا لعبد من عباد ، والضمانات فيه للجميع ، لأنه مشروع للجميع .

وتلك ميزة قيام الدولة على شريعة الدين وقانونه . فالحرية الكاملة من كل عبودية أرضية لن تكون إلا في ظل مثل هذا القانون . ومادام جماعة من البشر أي كانوا يشرعون لجماعة من البشر ، فلن تتحقق المساواة المطلقة ، ولن تتحقق المصالح المطلقة . إن الحاكمين سيحسون دائماً أنهم أرفع لأنهم هم الذين يضعون التشريع ؛ وإن القانون سيظل دائماً في مصلحة طبقة دون طبقة ، ولن

(٢) أخرجه السنة إلا النسائي

(١) الخمسة إلا أبا داود

(٣) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري .

يحقق مصالح الجميع . . هنالك حالة واحدة يخضع فيها الفرد للقانون وهو شاعر بعزته كاملة وحرية كاملة ومصلحته كاملة . . حالة استمداد التشريع كله من شريعة الله ، الذي لا حاكم إلاه ، ولا مسيطر سواه ؛ ولا مصلحة له في نصرة طبقة على طبقة ، ولا إخضاع طبقة لطبقة . وعندئذ فقط يطمئن الفرد إلى العدل المطلق ويستريح . وعندئذ فقط يطمئن الحاكم من كبريائه التي يستمدّها من سلطة التشريع ؛ ويحس أنه لا يملك شيئاً إلا أن ينفذ القانون الإلهي ، الذي فرض عليه وعلى كل فرد سواء . . وهذا هو التحرر الكامل الصحيح .

والإسلام يوفر للفرد في قانونه هذا كل ضماناته : يحفظ عليه حياته وماله وعرضه ، فلا تمس إلا بحق الله فيها ؛ ويحميه من السخرية منه أو التجسس عليه أو اغتيابه أو أخذه بالظنة : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلهزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يعتب بضمكم بعضاً . أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكبرهتموه . واتقوا الله إن الله تواب رحيم ^(١) »

ويضمن له حرية داره وحرمتها فلا يتسورها عليه أحد ، ولا يدخلها بغير إذنه أحد : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها

أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو
أزكى لكم ، والله بما تعملون علیم^(١) »

حتى الجريمة لا يجوز إثباتها بتسور البيوت والتجسس على الناس في
مأمنهم . وقد حدث أن مر عمر بن الخطاب في إحدى جولاته الليلية بيت
سمع فيه صوت رجل وامرأة لعله رابه ، فتسور الحائط لينظر ، فإذا رجل وامرأة
ومعهما زق خمر . فقال عمر : يا عدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت
على معصيته ! فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ! أنا عصيت الله في واحدة وأنت
في ثلاث . فالله يقول : « ولا تجسسوا » وأنت تجسست علينا . والله يقول :
« وأتوا البيوت من أبوابها » وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه . والله
يقول : « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسالموا على أهلها »
وأنت لم تفعل .

وهكذا لم يجد عمر أنه يملك عقابه ، فاستتابه !
وبمثل هذه الضمانات يكفل الإسلام للفرد طمأنينته وحرية وحرماته
جميعاً . فإذا اعتدى عليها معتد فالقصاص حاضر أيا كان هذا المعتدى ، ولو كان
الحاكم الأعلى ، فما ميز الإسلام في قانونه ولا في واقعه التاريخي — حينما كان
يحكم — بين خليفة أو أمير وبين فرد من عامة المسامين في القصاص . محمد رسول الله
كان يقيم من نفسه ؛ وعمر بن الخطاب يدع ابن المصرى من عامة الشعب
يضرب « ابن الأكرمين » ابن عمرو بن العاص حاكم مصر حتى يرضى ؛ وعلى بن
أبي طالب يخاصم نصرانياً سرق درعه إلى قاضيه شريح ، فيحكم القاضي ضده
لأنه لا يملك بيعة على السارق ، فيبسم الخليفة ويرضى .

وهكذا وهكذا مما لا يتسع المجال لتفصيله هنا وحسبنا منه الإشارة^(١)
ثم يضمن الإسلام للفرد رزقه في عنق الجماعة : يضمه بالعمل والنصفة في
الأجر عند القدرة ، وبالضمانات الاجتماعية عند التعطل وعند العجز وعند
المرض وعند الشيخوخة ؛ ويكفله للطفل رضيعاً وناشئاً حتى يقدر على العمل .
وسنفصل الحديث في هذه الضمانات كلها عند الكلام عن سلام المجتمع ،
فحسبنا هنا ما يشير إلى ضمانات الفرد التي تدخل السكينة إلى نفسه ، والاطمئنان
إلى روحه في واقع الحياة العملية ، بعد السكينة الروحية التي يجدها في العقيدة
الإسلامية .

وإن الإسلام ليوفر أسباب السلام كلها في قرارة ضمير ؛ وشعاره في هذا
المجال ما أعر بنا عنه في أول الفصل : « لاسلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع
بالسلام » .

(١) يراجع فصل « من الواقع التاريخي » في كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام »

والتجمل . وإنك لتحس في الألفاظ ذاتها حنوا ورفقا ، وتستروح من خلالها نداوة وظلا . وإنها لتعبر كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق . ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها ، بما فيها امتداد الحياة بالأولاد ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ، ويعترف بطهارتها وجديتها ، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها ، ذلك حين يقول : « نساؤكم حرث لكم ^(١) » فيلاحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

يحيط الإسلام هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، أو هذه المثابة ، بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام السكينة ، فإنه لا يكتفى بالإشاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية ، والضمانات التشريعية .

فأولا : لابد في هذا الارتباط من الرضى والاستئذان ، فلا تزوج المرأة بغير إذنها ورضاها . ولابد فيه من الرؤية ليكون هذا الرضى جديا وقائما على حقيقة ، ومنبعثا من شعور : « فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما ^(٢) » .

وثانيا : لابد فيه من علانية وإشهاد ، فلا يتم في السر والخفاء كما تتم الجريمة ؛ ولابد من إيجاب وقبول صريحين يشهد عليهما الشهود ، فلا يبق ظل من شك أو غموض في قيام هذا الارتباط ، حتى ليستحب دق الطبول لهذه المناسبة زيادة في الإعلان !

وثالثا : لابد فيه من نية التأيد لا التوقيت ؛ فإذا نوى أو صرح بأن يكون هذا الزواج موقوتا بزمن لم ينعقد . لأن هذا الارتباط مقصود به السكن

(١) البقرة ٢٢٢

(٢) من حديث عن المغيرة بن شعبه ذكر صاحب مصابيح السنة أنه من الحسان .

والاستقرار ، مقصود به أن يركن إليه الزوجان في اطمئنان ، وأن يبنيا في ظله الحياة وهما واثقان آمنان .

ولكى يهيئ الإسلام للبيت جوه ؛ ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها .. أوجب على الرجل النفقة وجعلها فريضة ، كي يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيئ به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها . فالأم المكدودة بالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المشتتة الطاقة فيه .. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها . وبيوت الموظفات والعاملات ما تريد على جو الفنادق والخانات ، وما يشيع فيها ذلك الأرج الذى يشيع فى البيت . حقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امرأة ، وأرج البيت لن يفوح إلا أن تطلقه زوجة ، وحنان البيت لن يشيع إلا أن تقولاه أم . والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها وجهدها وطاقاتها الروحية فى العمل لن تطلق فى جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال .

إن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضماير والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرد والضلال .

وفى سبيل الاستقرار البينى وقطعا لدابر الفوضى والنزاع فيه ، جعل الإسلام القومة للرجل فيه ، وذلك تمشيا مع سياسة التنظيم التى يحرص عليها الإسلام حرصا شديدا ، والتى جعلت الرسول يأمر الرجال أن يؤمروا عليهم أحدهم حتى لو خرج اثنان فى أمر فأحدهما أمير .

إن توحيد القيادة ضرورى لأمن السفينة ، وفى سفينة البيت لابد من قيادة ، تحمل التبعة وتحفظ النظام أن ينتسكت ، وما فى هذا من شذوذ على القاعدة الإسلامية العامة فى عالم الرجال أيضا . فأى الزوجين كان المنطق كفيلا بأن يسامه القيادة ؟ المرأة المشبوبة العواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى فى رعاية الأطفال وتعطير جو البيت بالجمال ؟ أم الرجل الذى كلفه الإسلام الإنفاق لتخلو المرأة إلى عبئها النضج ، وتنفق فيه طاقتها ووسعها ؟ لقد جعل له الإسلام القوامه ، تحقيقا لنظامه المطرد أن تكون فى كل عمل قيادة وقوامه ، واختاره لأنه بخلقته وتجار به أصلح الاثنين لهذه الوظيفة .

وهكذا حين تعرض المسألة فى بساطتها هذه وفى وضوحها ، ينكشف ذلك اللفظ الهاذر الذى تلوكة ألسنة الفارغين والفارغات فى هذا الزمان حول هذا النظام ، ويتجلى أن فراغ الحياة وفراغ القلوب وفراغ العقول ، هو الذى ينشئ ذلك اللفظ ، ويجعله موضوع جدل ومادة حديث . وهو نظام قصد به الإسلام أن يكون حلقة من حلقات السلام فى البيت ، وضمانة للاستقرار فيه والنظام . ولكن فى عهود الانتكاس ، وفى فترات الفراغ من جديات الأمور ، لا يبقى للمجتمع ما يحفل به إلا الفتات والقشور .

الاختلاط والتبرج

وفى سبيل السلام البيتي ، وإشاعة الثقة واليقين فيه كان النهى عن التبرج ، وكان التحرج من الاختلاط ، وكان الأمر بالحشمة والتحفظ ، حتى لأمهات المؤمنين فى عهد الرسول : « يا أيها النبىُّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ^(١) » .. « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ أَبْنَائِهِنَّ ، أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ ، أَوْ إِخْوَانَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ، أَوْ نِسَائِهِنَّ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٢) »

إن من حق الرجل كما أن من حق المرأة أن يطمئن كلاهما إلى رفيقه ، وألا يتعرض للإغراء الذي قد تنحرف معه عواطفه عن شريكه ، إن لم يقده الانحراف إلى الانزلاق والخطيئة ، مما يهدد ذلك الرباط المقدس ، ويطيّر عن جوه الثقة الكاملة والاطمئنان .

هذا الانحراف في العواطف ، والانزلاق إلى ما هو أبعد ، واقع كل يوم وكل لحظة في المجتمعات التي ينطلق فيها الاختلاط ، وتنطلق فيها المرأة متزينة متبرجة ، وتنطلق معها شياطين الفتنة والإغراء . وهذر فارغ يكذبه الواقع ما تلهج به ألسنة البيغوات هنا وألسنة الشاردين هناك من أن الاختلاط يهذب المشاعر ، ويصرف الطاقات المسكوبة ، ويعلم الجنسنيين آداب الحديث وآداب المعاشرة ، ويزود بالتجربة التي تصون من الزلل . وأن الاختيار القائم على

التجربة الكاملة — حتى عنصر الخطيئة — كفيـل بأن يمسك الشريكين كلا لصاحبه ، لأنه إنما اختاره عن رضى ، وبعد تجربة ...

أقول هذر يهدمه الواقع ، واقع الانحرافات الدائمة والتحولـات المستمرة فى العواطف ، وتحطيم البيوت بالطلاق وغير الطلاق ، وانتشار الخيانات الزوجية المزدوجة فى تلك المجتمعات .

إن التجربة الكاملة لا تمنع أن تبرز فى حياة الزوج أو الزوجة بالاختلاط الطليق شخصية أخرى أقوى وأكمل وأشد جاذبية . فماذا يقع حينذاك ؟ إما أن ينزلق الزوج أو تنزلق الزوجة استجابة لهذا الهوى الجديد . وإما أن يقاوم هو أو هى احتفاظاً بالواجب ، فيقع فى القلق والحيرة والاضطراب ... وكلاهما طريق لا يقود إلى سلام فى القلب ، ولا إلى طمأنينة فى الروح ، ولا إلى أمن فى البيوت .. ودع عنك تدلى الإنسانية فى الفاحشة ، وارتكاسها فى البهيمية ، وانتكاسها إلى مثل فوضى الحيوان ونزواته المطلقة العنان !

فأما خرافة التهذيب والتصريف النظيف باللقاء وبالحديث .. فليسلأوا عنها نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية الأمريكية ، وقد بلغت فى إحدى المدن ٤٨ فى المائة . وأما البيوت السعيدة بعد زواج الاختلاط المطلق والاختبار الكامل فليسلأوا عنها نسبة البيوت المحطمة بالطلاق فى أمريكا ، وهى تقفز فترة بعد فترة كلما ازداد الاختلاط وكلما تم الاختبار . وهذه النسبة الخفيفة تمضى فى هذه الخطوط .

النسبة في المائة	التاريخ
٦ ٪	سنة ١٨٩٠
١٠ ٪	» ١٩٠٠
١٠ ٪	» ١٩١٠
١٤ ٪	» ١٩٢٠
١٤ ٪	» ١٩٣٠
٢٠ ٪	» ١٩٤٠
٣٠ ٪	» ١٩٤٦
٤٠ ٪	» ١٩٤٨

والبقية تأتي من البيوت المحطمة تحت مطارق الشهوات الجاحمة ،
والرغبات المتقلبة ، والقلق الجانح ، الذي يثيره تقلب العواطف في المجتمع
المختلط ، الذي تلوح فيه للأزواج والزوجات مزايا جديدة في نساء جدد ورجال ،
فمنفلت هؤلاء وهؤلاء إلى صيد جديد ، وتتأرجح البيوت في مهب الريح ، كما
لمح زوج أو لمحت زوجة بارقة لامعة في شخصية جديدة ، كما لو كان الزوج
أو كانت الزوجة قطعة أثاث أو رباط عنق أو زيا جديدا في عالم « المودات » !
لقد آن أن تراجع البشرية تلك النظريات الخيالية الخاوية التي كانت
تقول : إن الاختلاط تصريف جزئي ملطف نظيف ، وأن التجربة تقود
إلى الاختيار ، وأن الاختيار طريق الاستقرار ...

إنها نظريات تبدو منطقية ، ولكن التجربة الواقعية التي بلغت
في أمريكا بالذات غايتها ، كقيلة بأن تسخر من هذا المنطق الظاهري البراق !

فلم يؤد الاختلاط إلى تصرف نظيف ، إنما أدى إلى بهيمية كاملة تطيع النزوات الجسدية وتلبسها بلا حد ولا قيد . ولم تؤد التجربة الكاملة والاختيار المطلق إلى تماسك في البيوت ، ولا إلى استقرار وثبات ، إنما أدى إلى تفكك دائم وطلاق متزايد ، وجوع مستمر وسعار !

إن التجربة الأمريكية في هذا المجال لتجبه آراء فرويد وأمثاله بالتكذيب . إنها تصرخ في وجه من يريد أن يسمع بأن الاختلاط الدائم مدعاة إلى تهيج دائم ، إما أن ينتهي إلى ذروته وغايته فينطفئ مؤقتاً ريثما يعود إلى الاشتعال ، وإما أن لا ينتهي إلى هذه الغاية العملية المادية ، فيؤدى إلى الضغط العصبي وما وراءه من أمراض .

ولقد كان الإخلاص العلمى وحده كفيلاً بإعادة النظر في هذه النظريات كلها على ضوء التجربة الأمريكية الواقعية ، التى تشهد بأن الدوافع الجسدية من القوة والعمق بحيث لا يطفئها تصرف الاختلاط ، ولا حتى تصرف الارتواء . فأنت لا تسكت جوعة المعدة بشم رائحة الشواء ، بل تزيدها تشهيًا ؛ وأنت لا تسكت هذه الجوعة كذلك بالأكل الدسم المتخممة إلا إلى حين ، تفيق بعدها وهى أشد تشهيًا وأطلب للأكلات الدسمة . وما جوعة الجسد إلا كجوعة المعدة كلماها دأمة . وقد شاءت لها القدرة الخالقة هذا الدوام لأنها تنوط بها مهمة دأمة فى امتداد الحياة . وهذا هو الذى تصرخ به التجربة الأمريكية فى وجوه النظريات والخيال !

ولقد كان الإسلام يقدر هذا كله ، وهو يشير بالحشمة ، ويتحرج من الاختلاط ، ويأمر بفض الأبصار ، ويحرم التبرج . لقد كان يريد للضائر أن تقر ،

والأرواح أن تطمئن ، وللبیوت أن تهدأ . . لقد كان يريد السلام للعش الذى ليس ملكا للزوج وليس ملكا للزوجة ، فہما فیہ راعیان للفراخ الزغب ، أمینان على الطفولة النابتة ، حارسان للحياة المتفتحة فى مثابة الأمان .

الحدود

وإن الإسلام لیسکره أن تشیع الفاحشة فى المجتمع : « إن الذين یُحِبُّون أن تشیع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ »^(١) . « ولا تقرُّوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبیلها »^(٢) . ولشیوع الفاحشة أثره الفاحش فى تحطيم أسس المجتمع ، ولکن الذى یعیننا فى هذا الموضع أثره فى أمن البيت وسلامه ، وحرص الإسلام على هذا السلام .

إنه يبدأ بأسباب الوقاية على نحو ما أسلفنا : يأمر بالحشمة ويحرم التبرج . ويتخرج من الاختلاط ويتوق من الفتنة ؛ وينهى عن الفاحشة ويقرنها بالكفر والشرك ؛ ويحاول تيسير الإحصان بالزواج عند الاستطاعة حتى لیدعو المسلمین إلى مساعدة من یتغنى الزواج بالمال . فإذا تعذر فهو یدعو إلى الصوم تلطیفاً لفورة الجسد : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فلیتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم یستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »^(٣) . وهو یجب فى الرياضة والفروسية ملاحظاً هذا المعنى بجانب غایات الفروسية الأخرى . . .

وما من شك أن التربية الإسلامية المعتدلة المتناسقة ؛ وتوق مواضع الإثارة وأسباب الفتنة بتحريم التبرج ، والتطرى فى الحديث ، والتخرج من

الاختلاط في غير ضرورة قاهرة ، مع أخذ الجسم بالرياضة والصوم ، والتبكير
بالزواج بمجرد الاستطاعة . . مامن شك أن هذه كلها عوامل إيجابية في ضبط
النفس والجسد إلى حين .

والببغاوات هنا والشاردون هناك يقولون : إن هذا الضبط لابد مؤدّ إلى
العقد النفسية . ذلك أنهم لا يتخيلون صورة للمجتمع إلا تلك الصورة القذرة ،
صورة الشبان الهاجنين محتكين بالفتيات الفائآت ، صورة الأفخاذ والنهود
عارية بارزة ، صورة النظرات جاهرة في العيون والشهوات ناضجة في الشفاه .
تدفعها كلها وتؤججها مناظر الأفلام الداعرة ، وصور الصحف المجرمة ، وأصوات
المخنثين والمخنثات في الإذاعة . ومن وراء ذلك كله الترف والفرار في جانب ،
والعوز والانحلال في جانب . ومن حول ذلك كله تجار الأعراض ومخانيث
القوادين .

... إن مجتمعاً هذه صورته ليتعذر فيه الضبط ، لأن عوامل الفتنة كلها
فيه هائجة صاحبة جامحة طليقة . وإن مجتمعاً هذه صورته ليعز فيه على النفوس
القرار ، ويعز فيه على البيوت السلام . ولكن المجتمع الإسلامي شيء مغاير
لهذا كله من الأساس . إنه مجتمع يحارب الترف ويحرمه ، ويحارب العوز
ويسده ، ويحارب الاختلاط والتبرج ، ويحارب التخنث والتأنت ؛ وهو بعد
ذلك كله يملأ فراغ الحياة بهموم كبار في سبيل الله وفي سبيل الإنسانية ؛
ويملاً فراغ الوقت بالعمل ، فلا يوجد فيه أولئك الفارغون والفارغات الذين
لا يجدون ما يملأون به حياتهم ، ويصرفون فيه طاقاتهم ، إلا الشهوات
والنزوات ، وإلا الترف الفاجر الداعر في الحفلات والسهرات .

إن الإسلام لا يدع كؤوس الخمر تهيج الدم في العروق ، ونهود الخليعات وشفاهن الظائمة ونظراتهن الفاجرة تهتف بالرجال ؛ ثم يكلف الرجال أن يضبطوا نزواتهم ويكبحوا شهواتهم ! . . . كلا . إنه يأخذ الأمر من أطرافه جميعاً ، ويأخذ على أسباب الفتنة الطريق منذ الخطوة الأولى ؛ ثم يكلف الناس ما في طوقهم حينذاك ، بدون مشقة وبدون إعنات .

فإذا وقعت الفاحشة بعد ذلك ، ففي سبيل سلام البيت وفي سبيل تماسك المجتمع يأخذ الأمر بعقوبات رادعة يوقعها على الفاحشين والفاحشات : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْ كُفُّ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » (١) . وقد عاقب النبي صلى الله عليه وسلم بالرجم لا بالجلد ؛ وعاقب به الخلفاء بعده .

وتسمع من البيغاوات هنا ومن الشاردين هناك أنها عقوبة قاسية . . . قاسية ! أما تحطيم البيوت ، وقلق الضمائر ، وتدليس الأنساب ، فما هي بقاسية . قاسية لأن المترفين والمترفات ، والداعرين والداعرات ، يحسون — وهم يصفونها بالقسوة — وقع السياط على جلودهم الناعمة المترهلة ، ونقح الأحجار في أجسادهم اللينة الرخصة . إنهم يدافعون عن أنفسهم وهم يشدقون باسم القوانين المتحضرة ؛ وينعتون حدود الإسلام بالقسوة أو بالهمجية . وهم الهمج المتكسون إلى حياة البهيمية الأولى .

والإسلام مع ذلك لا يقضى بهذه العقوبة الرادعة إلا في حالات التأكد المطلق الذى لا شبهة فيه ، وفي حالات الإحصان بالزواج حيث تنقضى الحاجة القاهرة ، أما غير المحصنين وغير المحصنات فعقوبتهم أخف وليست تتجاوز الجلد .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ادروا الحدود بالشبهات ^(١) » لأن الجريمة التى تقوم عليها شبهة ، ليست هى الجريمة الواضحة الظاهرة المتبجحة ؛ وهى أولى بالعطف والتخفيف ، وفى التعزير ما يكفي لغير المجرم المتبجح بجريمته حتى ليراها الشهود — وهم فى حالة الزنا أربعة — يتأكدون جميعاً من وقوع الفعل بلا شك فى نفس واحد منهم ولا مطعن فى عدالته ، وإلا فلا رجم ولا جلد .

وإذا عرفنا أن تسور الأبواب واقتحام البيوت الخاصة ممنوع ، فإن ضبط هذه الجريمة ورؤية الشهود لها على الوضع الذى يشترطه الإسلام لإقامة الحد ، لا يكون غالباً إلا فى حالات التبهتك الفاضحة ، والتبجح بالجريمة فى الأماكن العامة . . وتلك إشاعة للفحش ، واستهتار بالكرامة والعرض ، لا توصف معهما العقوبة بالقسوة عند ذوى الفطر المستقيمة والطباع السليمة .

ومنعاً لشيوع الاتهام بالحق وبالباطل يعاقب الإسلام بالجلد وبالحرمان من الثقة وإسقاط الشهادة كل من يرمى امرأة محصنة بالتهمة ولا يأتى بشهود أربعة : « والذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٢) » وذلك كى لا يشيع الاتهام ويشيع

القلق في النفوس والبيوت ، وتشيع قالة السوء في المجتمع فتمقد الثقة ويحل مكانها التشكك والخوف : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً ^(١) »

فإذا جاءت النهمة على لسان زوج ، ولم يكن له شهود ، فإن الإسلام يقدر ظروف البيوت وتعذر الشهود ، فيعفيه من العقوبة إذا هو شهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، وشهادة خامسة بأن يلعنه الله إن كان من الكاذبين . ويقيها من العقاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين وشهادة خامسة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ^(٢) » .

الطلاق

والطلاق ؟ إنه صمام الأمن في هذه الخلية . إنه أبغض الحلال إلى الله . ولكنه مكروه تبيحه الضرورة ، تحقيقاً للسلام الحقيقي في جو البيت حين يعزّ السلام عن كل طريق سواه . وإنه لا اعتراف بالمنطق الواقع الذي لا تجدى في إنكاره حذلقات المتحذلقين ، ولا تدفع وجوده كذلك أحلام الشعراء . إن هنالك حالات واقعية تتعذر فيها الحياة الزوجية ، فإمسك الزوجين على هذا الرباط مرغمين لا يؤدى إلى خير ، ولا ينتهى إلى سلام .

والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدس فيقصمه لأول وهلة ، ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، ويستمسك به في استماتة ، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس والحال .

إنه يهتف بالرجال : « وعاشروهن بالمعروف » ، فإن كرهتموهن فمضى أن تَكْرَهُوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً^(١) . فيميل بهم إلى التزيت والمصاهرة حتى في حالة الكراهية ؛ ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : « فمضى أن تَكْرَهُوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فما يدرهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيراً ، وأن الله يذخر لهم هذا الخير فلا يجوز أن يفلتوه ، إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستشارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته .

فإذا تجاوز الأمر مسألة الكره والحب إلى النشوز والنفور ، فليس الطلاق أول خاطر يهدى إليه الإسلام ، بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق بمحاولة الخيرون : « وإن خفتم شقاقَ بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما . إن الله كان عليماً خبيراً^(٢) » .. « وإن امرأة خافت من بعلها نشوْراً أو إعراساً فلا جناحَ عليهما أن يصلحا بينهما بالصالح خير^(٣) » .

فإذا لم تجد هذه الوساطة ، فالأمر إذن جد ، وهنالك ما لا تستقيم معه هذه الحياة ، ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجين على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة ، يزيد بها الضغط فشلاً . ومن الحكمة التسليم بالواقع ، وإنهاء هذه الحياة

(١) النساء ١٩

(٢) النساء ٣٥

(٣) النساء ١٢٨

على كره من الإسلام ، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق . ولعل هذه التفرقة تشير في نفس الزوجين رغبة جديدة لمعاودة الحياة ، فكثيرا ما تتفقد الشئ بعد أن تفقده ، ونرى حسناته عندما نحرمه . والفرصة لم تضع : « الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان^(١) » وهناك فترة العدة في حالة الدخول بالزوجة ، بعد الطلاق الأول ، ثلاثة أشهر على وجه التقريب إن لم يكن هناك حمل ، وحتى الوضع إن كان . وعليه أن ينفق عليها في هذه الفترة ولا يقتر في النفقة . وفي خالها يجوز له إن كان قد ندم أن يراجع زوجته ، وأن يستأنفا حياتهما بلا أى إجراء جديد ، فهو طلاق رجعى والحياة الزوجية قابلة للاستئناف بأيسر الأسباب .

فإذا تركت مدة العدة تضى دون مراجعة ، صار الطلاق باثنا . ولكن الفرصة بعد لم تضع ، وفي استطاعتهما أن يستأنفا هذه الحياة متى رغباً ، ولكن بعقد جديد .

وتلك هى التجربة الأولى ، وهى تكشف لكلا الزوجين عن حقيقة عواطفهما ، وعن جدية الأسباب التى انفصلا بسببها . فإذا تكررت هذه الأسباب أو جدّ سواها ، واندفع الزوج إلى الطلاق مرة أخرى ، فمعتدئ يحرم فرصة المراجعة التى كانت له فى المرة الأولى ، ويقع الطلاق باثنا منذ أول لحظة فلا سبيل له الآن إلى استئناف تلك الحياة باليسر الذى كان أول مرة . ولكن الفرصة لم تقلت إلى الأبد ، فأمامهما — إذا وجدا أن الحياة مستطاعة من جديد ، وإذا كشفا فى مشاعرهما عن بقية من ود ، أو عن دفين من حب —

أن يعاودا هذه الحياة . ولكن بعقد ومهر جديدين في هذه المرة ، كيلا يكون الأمر عبثاً ولعباً ، وكى يعلم الزوج أن الأمر جد ، وأن له تكاليف ، فيفكر ويتردد ويتحرج قبل أن يقذف بالكلمة الكريهة لسبب طارئ أو غضب عارض .

فأما إذا كانت الثالثة ، فالعلة إذن عميقة ، والمحاولة غير مجدية . ومن الخير له ولها أن يجرب كل منهما طريقه ؛ ومن الخير كذلك أن يتلقى الزوج إن كان عابثاً أو متسرعاً نتيجة عبثه أو تسرعه : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ^(١) » لا على طريقة « الحلل » الشائعة ، والتي لا يعترف بها الإسلام ، ولا تقرها شريعته . ولكن على أن تزوج زوجاً حقيقياً جديداً ، منوياً فيه التأيد لا التوقيت . فإذا حدث لأمر ما أن طلقت من زوجها الجديد أو مات عنها ، فلزوجها الأول أن يراجعها وأن يستأنفا معاً رحلتهما في الحياة .

ولا يجوز أن ننسى في هذا المجال توصيات الإسلام في كل خطوة وفي كل مرحلة بحسن المعاملة وتوفية النفقة ، تأليفاً للقلوب النافرة في فترة العدة ، فقد يعود إليها ودها ، وتجبر شعوبها ، وتستأنف الحياة صافية من جديد : « وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ . وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ^(٢) » . . . « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ، وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ، وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ

مَبْنِيَّةٌ . وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا . وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ
نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا . فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَئِنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ
وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ . ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ^(١) . »

ثم لا يجوز أن ننسى كذلك أن للمرأة أن تشرط أن تكون العصمة
بيدها ، فيكون لها من الحق ما للرجل في هذا المجال عند الاقتضاء .

ذلك هو الطلاق في الإسلام .. صمامة أمن لا تنطلق إلا حيث لا يكون
مفر من انطلاقها ؛ ومحاولة بعد محاولة في التوقي والاستصلاح والمراجعة ؛ وفرصة
بعد فرصة تكشف للزوجين عن حقيقة مشاعرهما ، وعن أخطأهما في السلوك
أو أخطأهما في التقدير ، أو أخطأهما في الشعور .

فقيم إذن تلهج حناجر عابثة جاهلة بنقد هذا النظام أو عيبه أو تشويهه ؟
يقولون : إنه نظام يدع المرأة دائماً مهددة بكلمة تخرج من شفتي رجل !
أهو كذلك في حقيقته الإسلامية ؟ أم إنه صار كذلك بانفلات القلوب
من عروة الإسلام ، وانفلات المجتمع من نظام الإسلام ، وانفلات الحكم من
يد الإسلام ؟

إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق . وإنه لمكروه تبيحه الضرورة . فإذا
فسدت القلوب ، وانحلّت الأخلاق ، ورخصت الروابط ، وفشا الاستهتار ،
فالمجتمع الفاسد هو المسؤول لا ذلك النظام البصير الحكيم . والعلاج لا يكون

بتقييد المباح وتحريم الحلال ؛ ولكن يكون برد الحكم والتنظيم والتربية إلى الإسلام . وعندئذ يصوغ الإسلام المجتمع كله وفق تعاليمه . فتشريعات الإسلام مشروعة لعالم يحكمه الإسلام ، ولنظام يقوم على الإسلام ، وللمجتمع ربه الإسلام .

دعوا الإسلام يحكم ، فيرعى النفوس ، ويوقظ الضمائر ، ويضرب على أيدي العابثين والمستهترين ، ويحقق إرادة الإسلام كلها ومن بينها شرائع الإسلام .

على أننى أقترض أن قد تم تقييد الطلاق ، فى مجتمع كجتمعهنا الزائف المريض . فما الذى تبتغيه المرأة بنفسها وبكرامتها ؟ أفتريد أن يلفظها الرجل من قلبه فيمسكها القانون عليه ؟! أفتريد أن يعث بطلاقها فلا تطلق ، وتبقى على العث بها مقحمة فى الدار ؟! أية كرامة تلك التى يريد لها المرأة نساء فارغات عاثات ، أراد الله لهن الكرامة فأبينها وانطلقن شاردات رخيصات ؟ إن الزواج رابطة مقدسة ، لا تقوم إلا على الرضى والقبول ، ولا تستمر إلا بالرضى والقبول . ونظام الطلاق هو الكفيل ببقائها قائمة على أصولها الكريمة . فإذا انفصمت عراها بعد هذا كله ، فعنى انفصامها أنها غير صالحة للبقاء ، وأنه خير للزوجين حينئذ وأكرم أن يركنا إلى حياة أخرى جديدة : « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّن سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ^(١) »

تعدد الزوجات

ورخصة تعدد الزوجات . . إنها هي الأخرى ضرورة تؤدي وظيفة صمام الأمن في مجالها كضرورة الطلاق عند الاقتضاء . وهي في الإسلام وقاية اجتماعية بحجة ، يتقى بها أخطاراً أكبر من مزاج الأفراد ، ومن رغبات الزوجات والأزواج .

ولقد كان موضع الحديث عن هذه الرخصة هو فصل الحديث عن « سلام المجتمع » لأنها ألصق به وأدخل فيه ؛ ولكنها ليست غريبة عن فصل « سلام البيت » الذي نحن فيه ؛ فالفرد والبيت والمجتمع والإنسانية كلها متداخلة متعاونة متناسقة ، في الواقع ، وفي فكرة الإسلام عن الحياة .

إن أثره طويلة عريضة تتناثر حول حكاية تعدد الزوجات في الإسلام ؛ فهل هي حقيقة تلك الآفة الخطرة في حياة المجتمع ؟ بل هل يمكن أن تصبح آفة خطيرة في يوم من الأيام ؟ وهل تحتاج إلى تشريع يناقض أو يقيد تلك الرخصة التي جاء بها الإسلام ؟

إنني أنظر فأرى كل مشكلة اجتماعية قد تحتاج إلى تدخل من التشريع بالتعديل أو التقييد ، إلا مسألة تعدد الزوجات ، فإنها تحمل نفسها بنفسها ، ولا توجد إلا حيثما كان المجتمع في حاجة إليها ، وتسمح أوضاعه وضروراته بها . إنها مسألة تتحكم فيها الأرقام ولا تتحكم فيها النظريات ولا التشريعات . ولست أدري كيف جاز أن تلوكها الألسن ، ولا كيف أصبحت مجالاً للأخذ والرد والنقاش !

في كل أمة رجال ونساء . ومتى توازن عدد الرجال الصالحين للزواج ،
المستعدين له ، المقبلين عليه ، وعدد النساء الصالحات للزواج ، الراغبات فيه ،
فإنه يتعذر عمليا أن يحصل رجل واحد على أكثر من امرأة واحدة .. لأن
الأرقام هنا هي التي تتحكم !

إن معنى استطاعة رجل ما أن يحصل على امرأة أخرى .. هو أن هناك
امرأة زائدة لا تجد رجلا يقابلها . ويستوى أن يكون هذا الرجل غير موجود
حقيقة أو حكما . أى أن يكون عدد النساء في سن الزواج أكثر عدديا من
عدد الرجال في الأمة ؛ أو أن يكون أكثر من عدد الرجال الصالحين للزواج
أو القادرين عليه من جميع الوجوه ، أو الراغبين فيه على فرض استطاعتهم له .
فإذا لم يزد عدد النساء الصالحات للزواج حقيقة أو حكما على عدد الرجال
تعذر كما قلت أن يجد رجل أكثر من زوجة حتى لو أراد ؛ وحلت المسألة
نفسها بنفسها عن طريق الأرقام !

فأما حين يختل توازن الأمة ، فيقل عدد الرجال الصالحين للزواج عن
عدد النساء ، سواء كانت هذه القلة من ناحية العدد كما يقع بعد الحروب والأوبئة
التي يتعرض لها الرجال أكثر ، أو لأى سبب آخر ؛ أو كانت من ناحية عدم
القدرة على الزواج لأسباب اقتصادية أو عائلية أو اجتماعية عامة .. فهنا فقط
يوجد مجال لأن يستطيع رجل تعدد زوجاته .

فلننظر إذن في هذه الحالة ، وأقرب الأمثلة لها الآن ألمانيا حيث توجد
ثلاث فتيات في سن الزواج مقابل كل شاب في هذه السن (ما بين سن ٢٠
وسن ٤٥) .. إنها حالة اختلال اجتماعي واضحة ، فكيف يواجهها المشرع

الذى يعمل لحساب المجتمع ولحساب المرأة والرجل ولحساب النفس الإنسانية جميعاً ؟
إن هنالك حلاً من حلول ثلاثة :

الحل الأول : أن يتزوج كل رجل امرأة ، وتبقى اثنتان لا تعرفان
في حياتهما رجلاً ، ولا بيتاً ، ولا طفلاً ، ولا أسرة ..

والحل الثانى : أن يتزوج كل رجل امرأة فيعاشرها معاشرة زوجية ، وأن
يختلف إلى الآخرين أو واحدة منهما لتعرف في حياتها الرجل ، دون أن تعرف
البيت أو الطفل أو الأسرة . فإذا عرفت الطفل لتلبية لنوازعها الأنثوية العميقة
عرفته عن طريق الجريمة ، وعرفته متهماً مشبوهاً ، ليس له والد معروف ،
وحملت نفسها وحملت الطفل البريء ذلك العار وذلك الضياع !

والحل الثالث : أن يتزوج هذا الرجل أكثر من امرأة ، فيرفعها إلى شرف
الزوجية ، وأمان البيت ، وضمانة الأسرة وتأمين الطفولة . ويرفع ضميره عن
لوثة الجريمة ، وقلق الإثم ، وعذاب الضمير . ويرفع المجتمع عن لوثة الفوضى
واختلاط الأنساب ، وقذارة الفحشاء . ويمنح الأمة فرصة التعويض عن هذا
الاختلال بنسل جديد يتم فيه التوازن بعد الحروب والأوبئة التى تنشئ ،
هذا الاختلال .

أي الحلول فى هذه الحالة أليق بالإنسانية ، وأحق بالرجولة ، وأكرم للمرأة
ذاتها وأنفع ؟

إنه موقف لا اختيار فيه . فإما هذا وإما هذا وإما هذا . ولا مجال
لعواطف الشعراء ، أو رغبات الأفراد ، أو الثثرة الجوفاء . إنها ضرورة اجتماعية
وضرورة روحية ، وضرورة حيوية . ومواجهتها ينبغى أن تكون فى الحدود

العملية الواقعية ، لا بالخيالات والأحلام . . ولقد اختارت ألمانيا المسيحية التي يحرم دينها التعدد .. اختارت في هذه الأيام فلم تجد خيرة إلا ما اختاره الإسلام ، وهي لا تدين بالإسلام !

لقد يقول قائل : إن المرأة الآن قادرة على العمل ، فهي قادرة على الحياة بلا رجال !

وأكذب الكذب على الطبيعة والفضرة والواقع أن يقال هذا الكلام .
حاجة المرأة إلى الرجل ، كحاجة الرجل إلى المرأة ، ليست محصورة كلها في الطعام ، بل ليست محصورة كلها في مطالب الجسد . وإن كانت هذه لا يغنى عنها المال ولا الطعام أو الشراب . بل إن هنالك حاجة نفسية عميقة في كيان كل امرأة أن تجد رجلا . إنها حاجتها إلى الاعتراف بوجودها . وليس شعور الرجل بعیدا عن هذا كذلك ، فإعجاب امرأة برجل يساوى لديه شيئا كثيرا للسبب نفسه ؛ مما يبطل خرافة العامل الاقتصادي الذي يفسر به بعض السطحيين من أصحاب المذاهب المادية شعور المرأة بحاجتها إلى الرجل ليعولها . فالرجل لا تعوله المرأة ولكنه لا يحس فرحا ولا نشاطا ولا اعتزازا كما يحس وامرأة تعجب به . . إنها الإرادة العليا التي أودعت نفس الجنسين هذه الحاجة لتبنى منهما الحياة ، ولتدفعهما إلى التعمير والإنشاء والنماء .

وإذن فما دامت في هذه الأرض ظروف يقل فيها التوازن بين عدد الجنسين أو ينعدم ، فأكرم حل ، وأشرف علاج ، وأسلم وقاية ، هي تلك الرخصة التي سنّها الإسلام ، ووكّلها إلى الأرقام ، وتركها تحل نفسها بنفسها ، لأنها لا توجد إلا وهناك من صميم الواقع العددي ما يدعو إلى وجودها ، فإذا

لم يوجد دافع الأرقام ، فلن يكون لها وجود ولو أرادها الإنسان !

وإننى لا أتقدم إلى الثرثارين عندنا والثرثرات ، الذين يلغطون وهم لا يدركون البديهيات .. أتقدم إليهم أسألهم : ترى حدث فى يوم من الأيام أن شاباً مصرى أراد الزواج ، فلم يتمكن من العثور على فتاة ، بسبب أن هناك رجلاً آخر طامعاً أو شهواناً أو مترفاً ، قد حصل على أكثر من زوجة ، فخرم زميله من الحصول على زوجة ، لأنه لا يوجد وفر فى الفتيات ؟ !

نعم ! إننى أعرف حالات كانت النزوة الطارئة ، أو كان الثراء المفاجئ أو كان الحيوان الشهوان .. سبباً لا سبب سواه لأن يتطلع الرجل إلى تعدد الزوجات — وللإسلام فى هذه الحالة وجهة سنكشف فيما بعد عنها — ولكننى أسأل : أوقد اغتصب ذلك الرجل امرأة من بين يدي رجل ، أم إنه وجد فى المجتمع امرأة متعطلة لا يقابلها رجل ؟ إنه لو لم يجد هذه المرأة المتعطلة ما استطاع أن يلبي الحيوان الشهوان ، ولا النزوة الطارئة ولا حموة الثراء المفاجئ ، عن طريق الزواج .. أفى هذا جدال ؟

هنا يقال : إن العوامل الاقتصادية وغيرها من العوامل الاجتماعية تؤثر فى منح بعض الرجال قدرة فائقة على الحصول على أكثر من امرأة ، وتحرم الآخرين هذه الفرصة . فوجود نساء متعطلات ليس دليلاً على نقص حقيقى فى عدد الرجال ، ولكن على نقص فى المقدرة الاقتصادية والاجتماعية لبعض الرجال .

وهذا صحيح . ولكن علاجه ينبغى أن يتجه إلى إصلاح الأوضاع

الاجتماعية والاقتصادية التي تنشئ هذا الاختلال في جسم المجتمع ، لا إلى علاج عرضي بتقييد حق الزواج ، لا يصل إلى ممكن الداء .

ولو ترك الأمر للإسلام لما ترك هذا الاختلال الاجتماعي وهذا التخلخل الاقتصادي ، لأنه بطبيعته يحقق التماسق والتوازن في المجتمع في كل اتجاه ، ويعطى الضمانات الكافية لجميع الشركاء . ومن هذه الضمانات أن تشتط الزوجة ألا يضارها الزوج بأخرى ، فيكون لها شرطها أو تطالب الطلاق .

فالإسلام يعالج الأمر جملة ، فتعدل الجزئيات نفسها بنفسها ؛ ولا يعالج الموقف أجزاء وتفاريق بحلول ضيقة الأفق لا تمتد إلى أبعد من مواضع القدمين ، كما يريد الجاهلون الثرثارون والجاهلات الثرثارات !

ولا يغفل الإسلام عن أن هنالك طبائع غير عادية في الرجال ، لا تكفي بواحدة ، ولا بد أن تتطلع إلى أخرى وأخرى . فإن لم تيسر لها هذه الأخرى في عالم الزواج المعان الشريف ، وجدت في عالم الدعارة على نحو من الأنحاء . وبذلك يتفرع المجتمع ، كما تتفرع الزوجة ويتفرع البيت ، وتعمره الشكوك والظنون ، ويطير من جوه الأمن والسلام .

أفليس من باب الاحتياط الواقي أن نفسح لمثل هذه الطبائع المجال في دائرة الزواج المنظم الشريف ، بدل أن ندعها تخلص وتقدس ، وتدنس نفسها وتدنس سواها ، وتشيع الفاحشة بين الناس . كما وقع في أوربا التي حرمت التعدد الشريف ، لتواجه التعدد المدنس في كل ركن وفي كل اتجاه ؟

ولقد كان الإسلام حرياً بأن يهمل مثل هذه الرغبات ، وأن يتلقاها بالكبح والعقوبة حتى تقتصر على واحدة ، أو تهلك إذا هلك ! لولا أن

مثل هذه الرغبات تقابلها في واقع الحياة حالات اختلال في التوازن بين عدد الرجال وعدد النساء . والأمر في النهاية متروك إلى الأرقام كما أسلفنا ، وهي الحكم في الأمر ، بلا تحديد ولا تقييد !

وقد يقال من باب الجدل هنا : وما دام الأمر كذلك فلم إذن وضع الإسلام حداً أعلى لتعدد الزوجات ؟ ولم لم يترك ذلك لطبيعة الحياة والحكم الأرقام ؟

وهو مجرد اعتراض جدلي . وإلا فلتتذكر أن هذه الرخصة ضرورة في اعتبار الإسلام ، ومواضع الضرورة قاصرة على الحاجة . وأقصى الحاجة هي الأربع ؛ لأن الاختلال لا يزيد عادة على هذا الحد ، بل قلما يبلغه . ولأن التحديد يشعر بأن الإطلاق كان لضرورة ولم يكن هو القاعدة . وقد جاءت الرخصة مع ذلك مقيدة بشرط العدل الممكن : « فَإِنْ حَقَّتْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ »^(١) . والعدل هنا هو العدل في الإنفاق والعدل في الرعاية والعدل في الكفاية بكل جوانبها مالية وجسدية ونفسية . فأما العاطفة القلبية الشخصية التي لا تؤثر في مظاهر الحياة ، فالعدل فيها ليس في يد البشر ؛ وكل ما يطلب فيها ألا يظهر الميل ، فتكون الأخرى كالمعلقة : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَنَازَرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ »^(٢) .

والذين ينظرون إلى الأمر من زاوية واحدة يخطئون . فقد تضار الزوجة

الأولى ، ولكن هذه الزوجة ان تكون منصفة حتى تضع نفسها في موضع الأخرى التي كانت معطلة . أفلو كانت هي أما كانت تقبل الرجل الذي يتقدم إليها ليضمها إليه زوجة شريفة كريمة ، لاخليلة متهمة مدنسة ؟ كذلك يجب أن نلاحظ ظروفًا كثيرة أخرى : ظروف الزوجة المريضة التي لا يريد رجالها طلاقها ولا تستقيم معها الحياة . والزوجة العاقرة العزيزة على الرفيق . . وهكذا . وهكذا .

ولقد أراد الإسلام السلام بهذه الرخصة ، وأراد تنسيق الحياة بكل ظروفها وملاساتها ؛ ووضع في حسابه أشواقها وضرورتها ؛ ووازن بين الأضرار والآلام ؛ فاختار أخفها وأكرمها . فأما الفارغون والفارغات فليسوا في حساب الإسلام ؛ فالإسلام أكثر جدًّا من ثرثرة الفارغين والفارغات !

التكافل العائلي

ثم تتجاوز شخص الزوج وشخص الزوجة ، لنجد الإسلام يعنى بأمن الأسرة التي يضمها البيت جميعا ، وينظم العلاقات بينها جميعا ، ويقرر التكافل بينها جميعا . وفي التكافل حقوق وواجبات ، ومزايا وتكاليف ، تنتهي كلها إلى ثقة متبادلة ، واطمئنان إلى الحياة والمستقبل ، وشعور بالأمن فيها والقرار . إن عاطفة الأمومة وحدها تكفي في رعاية الوليد ؛ وإن عاطفة الأبوة وحدها تكفي في النهوض له وللأم بالنفقة ؛ ولكن الإسلام يضيف إلى العاطفة الغامضة التكليف الصريح . شأنه في ذلك شأنه في كل جوانب

الحياة . إنه يث العقيدة ويستثير الوجدان ؛ ولكنه لا يدع التكليف غامضة مبهمة ، ولا يكلها لجرد الوجدان والعاطفة . إنما يحددها بالنص ويؤيدها بالتشريع . وكذلك يفعل في حق الطفولة : « والوالدات يُرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ^(١) »

فأما الوالدان فلهما حقهما المقابل — وفي الإسلام كل حق يقابله واجب — يزيد عليه ما يناسب الأبوة والأمومة من احترام وطاعة وأدب ، ومن رفق في حالة كبرتهما وعطف . وإن الألفاظ التي يعبر بها القرآن عن هذه المعاني لتشع انعطافا ورقة وشفافية : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا : أَفٍّ وَلَا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً . واخفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وقل : رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ^(٢) . وللوالدة بقدر ما تعبت وبقدر ما عطفت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ، وَفِصَالَهُ فِي سَامِيٍّ : أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ^(٣) » .. ولا بد من لفتة في الآيتين إلى اقتران الإحسان للوالدين بعبادة الله في الأولى ، و اقتران الشكر للوالدين بالشكر الله في الثانية ، ففي هذا الاقتران إيماء ظاهر المعنى لا يخفى .

وينسحب هذا التكافل بين أفراد الأسرة جميعاً : يقوم بالتكليف أقرب عاصب ثم من يليه حتى يأتي دور ذوى الأرحام . ويرث كذلك أقرب

عاصب فالذى يليه على ذات النظام . لـكى يكون هنالك نوع من التأمين الاجتماعى فى داخل الأسرة . وذلك غير الضمانات الاجتماعية المفروضة على الجماعة وعلى الدولة . وسياقى الحديث عنها فى حينه .

هذا التكافل العائلى الواسع النطاق ، مضافاً إلى ما أسلفنا من النظم الإسلامية لشؤون البيت .. دعائم للسلام والأمان فى مثابة البيت . وشعار الإسلام فى هذا هو ذلك الذى قدمناه فى أول الفصل : « الفرد الذى لا يستمتع فى بيته بالسلام ، لن يعرف للسلام قيمة ، ولن يتذوق له طعماً ، ولن يكون عامل سلام ، وفى أعصابه معركة ، وفى نفسه قلق ، وفى روحه اضطراب » .

سلام المجتمع

في المجتمع تتشابك المصالح ، وتتزاحم الدوافع ، ويكثر الشد والجذب ، ويتكرر الأخذ والعطاء . وفي المجتمع يتبادل الأفراد ، وتتعامل الجماعات ، وتتفاعل القوى ، وتتنافس القدرات . وفي المجتمع يندمج الفرد ، ويندمج البيت ، وتندمج الأسرة ، ويحف بها جميعاً ذلك السياج الضخم الذي يشمل نشاطها جميعاً ، ويمثل اتجاهاتها جميعاً ، ويؤثر فيها ويتأثر بها في كل اتجاه .

وعندما يفرض بعض المذاهب الاجتماعية أن العلاقة بين الفرد والفرد هي أبداً علاقة المزاخمة والسباق ؛ وأن العلاقة بين الطبقة والطبقة هي أبداً علاقة الصراع والخصومة ؛ وأن العلاقة بين الأفراد والسلطات هي أبداً علاقة السكبت والإجبار . . . يقرر الإسلام أن العلاقة بينهم جميعاً هي علاقة الود والرحمة ، وعلاقة التضامن والتعاون ، وعلاقة الأمن والسلام . ويقرر أن القاعدة التي تقوم عليها حياتهم هي قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات ، والتعادل بين المغانم والمغارم ، والتوازن بين الجهد والجزاء . ويقرر أن الغاية المقدره لهم جميعاً هي امتداد الحياة ، وإنماء الحياة ، وترقية الحياة ؛ والتوجه بكل نشاط فيها وبكل نية وكل عمل إلى الله خالق الحياة .

ومن ثم ينتهي كل نشاط فردي ، وكل نشاط اجتماعي ، كما ينتهي كل تنظيم وكل إنتاج ، إلى السلام الكلي ، الذي ينسق بين مختلف النوازع والاتجاهات ، ومختلف القوى والطاقات ، ومختلف الأفراد والجماعات . لأن

هنالك أفقا أعلى من أفق المصالح الوقتية التي تثير الشحناء ، وتؤجج العداوات .
إن المذاهب الغربية منطقية مع البيئة التي نشأت فيها . بيئة الحضارة
الغربية المادية ، التي تنفي من الحياة كل هدف أبعد من هدف المصلحة المباشرة
القريبة ، وتنفي عن الإنسانية عنصر التطلع إلى ما هو أبعد من الذات . فحين
تحكم الحياة كلها هذه الفكرة المادية لا يكون هنالك مجال لغير الصراع
القاسي بين الطبقات في المجتمع ؛ ولا يكون هنالك مجال لغير قوانين العمل
وظروف الإنتاج ؛ ومن ثم تصبح مسألة « صراع الطبقات » حقيقة مادية
واقعة لا فكاك منها ، ولا أمل في اجتنابها ، ولا سبيل كذلك لتجاهلها .

فأما حين تحكم الحياة فكرة كالفكرة الإسلامية ؛ وحين تأخذ
نظريات الإسلام الاجتماعية سبيلها إلى التنفيذ العملي ؛ وحين يصبح القانون
الإسلامي نافذا كما أراده الله لا كما يفسره المحترفون من رجال الدين . .
عندئذ تصبح « الجبرية المادية » كما تصبح حتمية « صراع الطبقات » . . مسألة
تحكيمية لا تستند إلى واقع ولا منطق ؛ لأنها تحكم على بيئة أخرى ، ونظام
آخر ، حكما مستمدا من بيئة معينة تحكمها الأفكار المادية ، وتنفي منها فكرة
الأهداف العليا للحياة .

إن الإسلام لا يقيم هذا السلام الشامل على حساب الفرد أو حساب
الجماعة ؛ ولا يقيمه على أساس من مصلحة طبقة ضد طبقة ، أو سلطة دون
سلطة . إنما يقيمه على حسابهم جميعا وحسابهم جميعا . إنه يعطى كل مجتهد
جزاءه ، وكل محتاج حاجته ؛ ويرسم لكل فرد ولكل جماعة ولكل سلطة
حدودها لتحقيق العدالة المطلقة في النهاية . إن القانون الإسلامي الذي لم يضعه

فرد ، ولم تضعه طبقة ولم تضعه سلطة . . هو القانون المبرأ من الميل في صف فرد ومن محابة طبقة ومن مراعاة سلطة . ومن ثم فهو الحاجز دون طغيان طبقة على طبقة ؛ وهو الوقاية من ذلك الصراع الذى تحسبه المذاهب المادية ضربة لازب ، لأنها رأته في المجتمعات الغربية ضربة لازب ؛ ثم رأته في المجتمعات التى تدعى الإسلام — والإسلام منها براء — ضربة لازب كذلك . وهى عرض موضوعى لبيئة خاصة ، بيئة تغاير في مقوماتها الأساسية مقومات الحياة في الإسلام .

والآن فلننظر كيف يحقق الإسلام فسكرته السكينة في السلام الشامل القائم على العدل الكامل في محيط الحياة .

وجدان الحب والرحمة

يبدأ الإسلام بناء المجتمع في ضمائر الأفراد ووجدانهم ؛ فهناك في أعماق الروح يفرس بذرة الحب ، وينسم نسمة الرحمة . . الحب الإنسانى الخالص ، والرحمة الإنسانية المبرأة . . إنه يرد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة ؛ ويوقظ في وجدانهم شعور النسب والقربى ؛ ويذكرهم أخوتهم في الله وفي المنشأ والمصير . فإذا رفت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا إلى الساحة أقرب ، وإلى السلام أدنى ؛ وهانت أسباب الخلاف والنزاع ؛ وأمكن أن تفلح النظم والقوانين التى يسنها لتحقيق هذا السلام ؛ وكان ذلك الوجدان بمثابة الضمانة الوثيقة للشرائع والتنظيمات ؛ وسارت عجلة الحياة في يسر ورفق وسماح : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة

وخلق منها زوجهما ، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتفقوا الله الذي تَسَاءلون به والآرحام . إن الله كان عليكم رقيباً ^(١) »

وهكذا تنظم البشرية كلها في نسب واحد ، وفي إله واحد ؛ وتحتفي المنازع والفوارق ، لتبرز تلك الصلة الكبرى الوثيقة العميقة ، التي تشمل الناس جميعاً على اختلاف الملل والنحل ، والأجناس والألوان ، واللغات والأديان . أما المؤمنون فهم أقرب رحماً بعضهم إلى بعض بطبيعة الحال ، بحكم أخوتهم في الله ، والتقاءهم في العقيدة التي يعدها الإسلام أوثق من روابط الدم ، ووشائج النسب : « إنما المؤمنون إخوة ^(٢) » .. « مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ^(٣) » .. أولئك يهتف بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تباغضوا ولا وتحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ^(٤) » وينوط الإيمان فيهم بالحب حتى لا يفرق المرء بين نفسه وأخيه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ^(٥) » ويحرم عليهم الخصومة أكثر من ثلاث ليال يفتأون فيها غضبهم ثم يثوبون إلى المودة والقرىبي : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ^(٦) »

والرحمة صنو الحب ؛ والله يصف نفسه بها مراراً وتكراراً ، ويمن بها على نبيه أن جعلها في قلبه فكان ليناً عطوفاً : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ^(٧) » ويمن بها على المسلمين

(١) النساء ١ (٢) الحجرات ١٠ (٣) رواه الشيخان (٤) متفق عليه (٥) متفق عليه (٦) أخرجه الستة إلا النسائي (٧) آل عمران ١٠٣

أن بعث إليهم هذا الرسول الرحيم : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم ، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ ^(١) » ويجعل القسوة أمانة الكفر والتكذيب بالدين : « أرايت الذي يُكذِّب بالدين ، فذلك الذي يدعُ اليقينَ ولا يحضُّ على طعام المسكين ^(٢) »

والرحمة ليست مطلوبة بالمساكين وحدهم ولكنها للأدمين جميعاً : « ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء ^(٣) » .

لا بل إن الإسلام ليخطو بوجدان الرحمة خطوته الكبرى فيتجاوز بها عالم الإنسان كله إلى عالم الأحياء ؛ فيشيع في القلب البشري بشاشة ذلك الوجدان ورقته وانعطافه تجاه كل ذى حياة . يقول الرسول الكريم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا يارسول الله : وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : نعم . في كل ذات كبد رطبة أجر ^(٤) » .

وهي غاية في استجاشة وجدان الرحمة لا تبلغها إلا العقيدة المؤمنة بالوشائج الكبرى بين الأحياء جميعاً ، وبوحدة الخالق ووحدة الخلق في هذا الوجود العريض . وهي العقيدة الجديرة بأن تغمر نفس « الإنسان » أرقى هؤلاء الأحياء ، وخليفة الله في أرضه عليها جميعاً .

(٢) الماعون ١ - ٣

(٤) أخرجه الشيخان .

(١) التوبة ١٢٨

(٣) أبو داود والترمذي

الأدب النفسى والاجتماعى

ولكى يحقق الإسلام الحب والصفاء فى النفوس والقلوب ، فإنه يأخذ المسلمين بأداب نفسية وآداب اجتماعية تعين على هذه الغاية ، وتمنع أن تشور الأحقاد فى النفوس ، أو تغمر البغضاء القلوب ؛ وهو يستعين بهذه الآداب الرفيعة الرفيقة قبل أن يستعين بالقانون والتشريع ، وإن كان يتخذ من كليهما أداة ، لأن السلوك المذهب والأدب الجميل والمعاملة الطيبة كلها تشيع فى جو الحياة الاجتماعية رضى وبشاشة وطمأنينة قد تغنى عن التشريع والقانون .

إنه يكره التنفج على العباد والكبر والخيلاء : « ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا . إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، واقصدْ فى مشيك واغضضْ من صوتك . إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ^(١) » . « ولا تمش فى الأرض مَرَحًا . إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ^(٢) » . « إِنْ اللَّهُ أَوْحَى إِلَى أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغَى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ^(٣) » .

والإسلام يحفظ فى هذا طبائع النفوس فهى تكره المتكبرين ، وتبغض الختالين ، وتضيق بالمفتخرين المتباهين ، وتحمل الغيظ والحنق والتبرم بهؤلاء الناس ، ولولم يقدموا لأحد مساءة شخصية ، لأن مجرد تظاهرهم على هذا النحو يثير فى الآخرين كبرياءهم ، ويحفزهم إلى الرد عليهم بكرههم والتبرم بهم دون شعور .

(٢) الإسراء ٣٧ .

(١) لقمان ١٨ — ١٩ .

(٣) مسلم وأبو داود .

وإذا كان الإسلام يكره الكبر والخيلاء الذين قد لا يتالان إنساناً بذاته بالأذى ، فهو يحرم كل ما يمس كرامات الناس وأحاسيسهم ، ويلزمهم في مشاعرهم أوقيمهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تَسْخَرُوا قَوْمًا مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ . وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ؟ فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ^(١) » .

والإسلام يلحظ أدق مشاعر النفس ، حتى لينهى أن يتناجى اثنان سرّاً في حضرة ثالث لا يشترك في الحديث : « إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يؤذيه ^(٢) » وهو أدب نفسى عال لطيف .

وفى هذا السبيل كان النهى عن المنّ بالمعروف والصدقة ، فالمن خلق خسيس في ذاته ، مؤذٍ لكرامة الآخذين كذلك ، ولهذا فهو يمحى الصدقة ويذهب بالمعروف ، ويحلل النعمة والموجدة محلّ الشكر والاعتراف : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَفُتِرَ كَصَلْدٍ ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ^(٣) » .

ولا يقف الإسلام عند الحدود السلمية في هذه الآداب ، بل يدفع إلى الصورة الإيجابية منها لاستجاشة شعور الود وإحساس الألفة ؛ فهو يدعو إلى إشاعة الكلمة الطيبة بين الناس : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » (١) « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » (٢) . « وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » (٣) . وإلى إفشاء السلام في كل مكان ولكل إنسان ، على معرفة أو على غير معرفة ، فالرباط الإنساني وحده يكفي في التعارف ، ويكفي للتحية وإلقاء السلام ، تأليفاً للقلوب وإشاعة للطا نينة : « يسلم الصغير على الكبير والمرار على القاعد والقليل على الكثير » (٤) . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الإسلام أفضل ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٥) . وإلى مقابلة السيئة بالحسنة : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » (٦) . « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » (٧) .

وهو يدعو إلى الصفح عن المساءة وضبط النفس عند الغضب وجهادها لالتصطفن وتحقده ، ولكن لتعفو وتغفر ؛ وينصرف ما بها من انفعال ويحل محلّه البرء والسماح : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْأُمُورِ » (٨) .. « وَإِنْ تَعَفَّوْا وَاصْفَحُوا وَغَفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٩) .. « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » (١٠) .. « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » (١١) .

- | | |
|--------------------|-----------------------|
| (١) الإسراء : ٥٣ | (٢) البقرة : ٨٣ |
| (٣) النساء : ٨٦ | (٤) البخارى |
| (٥) البخارى | (٦) فصلت : ٣٤ |
| (٧) الفرقان : ٦٣ | (٨) الشورى : ٤٣ |
| (٩) التغابن : ١٤ | (١٠) آل عمران : ١٢٤ |
| (١١) الشورى : ٣٧ | |

وهو يدعو إلى السماحة في المعاملة بيعاً وشراءً واقتضاءً : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى ^(١) » وإلى الأمانة في التبادل « فإن آمن بعضكم بعضاً فليؤدّ الذي أوْثِنَ أمانته ^(٢) » ، وإلى النصح في التجارة « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما ^(٣) »

وهو ينأى بالمسلمين عن مثيرات الأحقاد ومؤثرات الضغائن ، كمجالس القمار حيث ترتفع درجة الأحقاد في النفوس وتهبط متابعة للكسب الحرام والخساسة الوبيثة ، ومجالس الشراب حيث لا ضابط للنزوات والهفوات من عقل أو إرادة : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أنتم منتهون ؟ ^(٤) »
وهكذا يقوم الأدب النفسى والاجتماعى بدوره فى تصفية جو الحياة ، وإشاعة المودة والألفة فى النفوس ؛ ويساعد فى بناء السلام فى المجتمع فى عالم الواقع وعالم الشعور .

شعور التعاون والتضامن

ثم يربط الإسلام الأفراد فى المجتمع بعد ذلك برباط المصلحة المشتركة ؛ ويقوى فى نفوسهم شعور التعاون والتضامن ، وشعور الواجب المفروض عليهم جميعاً لصالحهم جميعاً ؛ ويقيم حدود الحرية الفردية عند المصلحة المشتركة ؛ ويشعر الجميع أن هناك أهدافاً مشتركة لا ينهض بها الفرد وحده ؛ ولا بد من

(٢) البقرة ٢٨٣

(٤) المائدة ٩١

(١) البخارى والترمذى

(٣) التمسّة

التعاون لبلوغها بين الجميع : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته ^(١) » . . « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً ^(٢) »

والجماعة مسؤولة عن رعاية الضعاف فيها وكفالتهم وحمايتهم في أنفسهم وفي أموالهم : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ^(٣) » . . « رأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدعُ اليتيم ، ولا يحضُّ على طعام المسكين ^(٤) » « وابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ^(٥) » .

وفي الحديث : « من كان عنده طعام اثنین فليذهب بثالث . . . وإن أربع فخامس أو سادس ^(٦) » . . « من كان معه فضلٌ ظهرٌ فليعُدْ به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضلٌ زاد فليعُدْ به على من لا زاد له ^(٧) » .

(١) رواه الحمصه (٢) البخارى والترمذى (٣) الضحى ١٠٠٩
(٤) الماعون ٣٤١ (٥) النساء ٦ (٦) متفق عليه
(٧) مسلم وأبو داود

ولتحقيق مبدأ التعاون حرم الربا لما يثيره من الأحقاد في الجماعة . فليس يحق النفس أكثر من أن يلجأ المحتاج إلى ذى المال ، فيتمتز الفرصة السانحة والضرورة المحوجة ، ويفرض على أخيه ضريبة حراما ، وثمنا للمال يتقاضاه . « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (١) . . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » (٢) .

إن المال يجب أن يعطى المحتاجين قرضا بلا فائدة ، لتشيع في الجماعة روح المودة والرحمة ، وروح التعاون والتضامن : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » (٣) « ولتكن الساحة طابع الاقتضاء بلا تعسير على المدين ولا إرهاب . فذلك هو اللائق بجماعة الإنسان !

ولتحقيق ذلك المبدأ كذلك حرم الاحتكار ولعن المحتكرين ، فهم نهازون للفرص ، يستوفون أرباحهم الفاحشة من دماء المستهلكين ، فيثيرون حفيظتهم ، ويشيعون في الجماعة روح التباغض ، ويقتلون بذور التعاون : « من احتكر فهو خاطئ » (٤) . . وحرمة الغش وتطفيف الكيل والميزان : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكْتَالُوا على الناس يَسْتَوْفُونَ ، وإذا كَالُواهُمْ أَوْزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (٥) . . « من غشنا فليس منا » (٦) . . وحرمة أن يبخس الناس أشياءهم ويعطوا دون قيمتها التى تستحق وعد ذلك فسادا فى الأرض : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (٧) .

(١) البقرة ٢٧٥ (٢) البقرة ٢٧٨ (٣) البقرة ٨٢

(٤) مسلم وأبو داود والترمذى (٥) المطففين ١ — ٣

(٦) مسلم وأبو داود والترمذى (٧) هود ٨٥

ثم أمر المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ، فيلتقوا عند ذلك الحور ،
ويأخذوا بتلك العروة ، فيشعرهم هذا بوحدتهم في الله ، وتعاونهم في سبيله ،
وتجمعهم في طاعته : « وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ،
وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ^(١) » . . « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » ^(٢) .

وتلك عقدة العقد ، ورابطة الروابط التي يلتقي عليها الجميع ؛ فيحسُّون
بالوحدة التي تجمعهم ، وبالواجب الذي يدفعهم . وما من شك أنها لبنة في بناء
السلام الاجتماعي ذات قيمة في البناء .

الأهداف العليا للحياة

بعد ذلك كله — أو قبل ذلك كله — يحقق الإسلام السلام في المجتمع
الإسلامي بنقلة ينقلها للفرد ، وينقلها للجماعة ، من عالم الذات المحدود إلى آفاق
أعلى من الذات وأفسح . . إن الصراع كثيراً ما ينشأ من الطاقة المسكوبة
التي لا تجد لها مصرفاً ، ومن المجال الضيق الذي لا يسمح لهذه الطاقة بالتسامي .
ذلك حين تضيق آفاق النفس ، وتضمر أهداف الحياة ، ويصبح الواقع
الفردى الصغير ، أو الواقع الجماعي المحدود ، هو مجال النشاط ، ومجال العمل ،
ومجال الخيال .

والإسلام يقطن إلى هذا كله ، فيخرج الفرد ويخرج الجماعة من جُحْر
الغايات الصغيرة القريبة ، ليطلقها في مجال الأهداف العليا للحياة الطليقة . .

يطلقها من مضيق العمر الفردي القصير إلى فضاء الحياة العامة الكبيرة ، ومن مجال النظرة القومية الضيقة إلى آفاق الإنسانية الرفيعة الشاملة .
عندئذ يحس الفرد أنه لا يعيش لذاته ، وإنما يعيش للإنسانية جميعاً .
وعندئذ تحس الجماعة أنها لا تحيا لهذا الجيل ، وإنما تحيا للبشرية قاطبة .
وعندئذ يحس المسلمون أنهم أوصياء في الأرض ، خلفاء الله ، وأن ذواتهم ليست ملكهم ، وجهودهم ليست لهم ، وحياتهم وسيلة لا غاية . ولا وقت إذن ولا فسحة للصراع الفردي الصغير الضئيل ، بينا الغايات العليا والأهداف الشاملة تنتظر الجميع .

إن الإسلام يقول للمسلمين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ^(١) . . ويقول لهم : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون . وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن » ^(٢) . . ويقول لهم : « ولتكن منكم أمة يَدْعُونَ إلى الخيرِ ويأمرون بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ ، وأولئك هم المفلحون » ^(٣) . فيرفع هاماتهم وأبصارهم إلى ما هو أعلى من الأرض ، وإلى ما هو أشمل من ذواتهم ومصالحهم . إلى الإصلاح الكوني العام . إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . إلى تحقيق الصلاح الإنساني الشامل . أما أنفسهم وأما أموالهم ، وأما مصالحهم القريبة جميعاً فقد باعوها بيع السماح ، بل باعوها بما هو خير وأبقى فقد اشتراها منهم الله . إنهم مكلفون أن يجاهدوا في الله لتصبح كلمة الله هي العليا ، وتصبح الأرض سلاماً لا فتنة فيها . وفي سبيل هذه الغاية العليا لا قيمة لذوات الأفراد

ولا للمصالح والمطامع والشهوات: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» (١) .. «من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٢) .
«لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل» (٣) .

وهم مكلفون حماية الضعفاء ودفع الأذى عنهم ومنحهم الأمان ، أيا كانت جنسيتهم وأيا كانت عقيدتهم ، ماداموا يؤمنون بالله ، وأيا كان الباغي عليهم من الظلمة : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (٤) .

وهم مكلفون أن يغيروا المنكر وقع من حاكم أو من رعية ، وقع من فرد أو جماعة ؛ فهم ملح الله في الأرض ، وبهم صلاحها ، وعليهم تبعه إزالة الآثام منها : « من رأى منكم منكرا فليغيره » (٥) . . . وإلا حل بهم الدمار وحق عليهم العذاب : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه » (٦) . « والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدى الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنَّه على الحق قصرا ، أو يضربنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض » (٧) .

والإسلام إذ يكلف المسلمين هذه التكاليف العليا يرفع نفوسهم وأهدافهم ويطلق طاقاتهم السكائمة في مجال الإنسانية لافي مجال الفردية . وما من شك أن هذا الانطلاق يشغلهم عن العداوات الصغيرة في المجتمع ، والشحناء التي تثيرها المطامع والمطامح . وإنه ليضع تلك الأهداف العليا في كفة ، ويضع

(١) الأنفال ٣٩	(٢) رَوَاهُ الْخَمْسَةُ	(٣) من كلام الخليفة الأول أبي بكر
(٤) النساء ٧٥	(٥) البخاري	(٦) أبو داود والترمذي
(٧) أبو داود والترمذي		

شهواتهم ومطامحهم في كفة أخرى ، فيخيرهم بين السكنتين من أول الأمر :
 « قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
 وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا . . أَلَيْسَ
 إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرْبَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ،
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ^(١) .

إنها تكاليف الوصاية على البشرية التي جعلها الله من نصيب هذه الأمة :
 « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ
 وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ^(٢) » . . « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
 النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ^(٣) » . . « وَإِنَّمَا وَاجِبُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ الَّتِي
 تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا مَشْدُودَةً إِلَى أَفْقٍ أَعْلَى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
 إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ^(٤) » .

وفي جو كهذا الجو يستطيع الفرد أن يحقق ذاته ، ويحقق رغبة الاستعلاء في
 نفسه ، دون أن يضطر في ذلك للنزاع الفردي والشحناء ، وإلى العراك الداخلي
 والبغضاء . ففي المجال متسع للجميع ، وفي الأرض مندوحة عن صراع الديكة
 على فتات الحياة !

نظام الحكم

فيما تقدم كننا نتحدث عن الوجدانات والمشاعر التي يقيم عليها الإسلام
 أسس السلام في المجتمع ، وهي عوامل لاشك في قيمتها ، ولا مجال لنكرانها .
 ولكن الإسلام لا يعتمد عليها وحدها ، ولا يدع لها تنظيم الحياة الاجتماعية

في عمومها . فنظرة الإسلام الكلية تجمع دائماً بين التكليف والتطوع ، وبين التشريع والتوجيه ؛ وتأخذ المجتمع بالنظم والقوانين ، كما تأخذه بالترغيب والتحريض . وفي مجال السلام الاجتماعي ، يأخذ الإسلام بهذه السنة كذلك فيجعل من نظام الحكم ، وضمانات العدالة القضائية ، وضمانات الأمن والسلامة ، كما يجعل من ضمانات المعاش والتوازن الاجتماعي العام ، وسائل لإقرار السلام في المجتمع عن طريق التشريع والتقنين والإلزام .

ونظام الحكم في الإسلام كفيل بإقرار العلاقات بين الراعي والرعية على أسس من السلم والعدل والطمأنينة ؛ ينهض عليها بناء السلام الاجتماعي سليماً راسخاً الأركان .

إن الراعي لا يصل إلى مكانه إلا عن طريق واحد : رغبة الرعية المطلقة واختيارها الحر .

وحكم يقوم على رضى واختيار ، وبعد مشورة من الناس وإذن ، حكم يشيع الثقة والطمأنينة في النفوس ، ويبث الرضى والارتياح في القلوب ، فلا مجال للبرم به ، والضيق منه ، والتفكير في الخروج عليه ، مادام ينهض بتبعاته بالطريقة التي رسمها الإسلام ، وفي الحدود التي شرعها الإسلام .

فما الطريقة الإسلامية في الحكم ؟ إنها طريقة الشورى : « وأمرهم شورى بينهم ^(١) » .. « وشاورهم في الأمر ^(٢) » .. وإذا كانت الشريعة لم تحدد طريقة معينة للشورى ، فذلك متروك لحاجات كل عصر وضروراته وطريقة حياته . ولكن المبدأ مقرر ، والطريقة معينة ، ومن شأنها إشراك الناس في تدبير أمورهم ، فلا مجال إذن لأن يسخطوا وهم شركاء في التدبير .

وما الحدود الإسلامية للحكم ؟ إنها تنفيذ القانون الإسلامي ، الذي شرعه الله لعباده جميعاً ، لم يراع فيه تفضيل فرد على فرد ، ولا مصلحة طبقة دون طبقة ، ولا إثارة جماعة على جماعة ، ولا تمييز حاكم على محكوم . . . كلهم عباد الله . والشريعة قانون الله . فكلهم أمامها سواء .

وطاعة الناس للحاكم رهونة بإقامة هذه الشريعة وتنفيذ ذلك القانون . فإذا فسق عنه فقد سقطت طاعته . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » ^(١) فوقت الطاعة بإقامة كتاب الله دون سواه . والقرآن صريح في الحكم بالكفر على من لا يحكمون بما أنزل الله : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » ^(٢) ، والإسلام صريح كذلك في وجوب مجاهدة الكافر ، وتحريم طاعة المسلم له على الإطلاق .

وتنفيذ هذا القانون الإلهي الذي لا يحابي أحداً ، ولا يجعل لفرد ، ولا لطبقة امتيازاً خاصاً . كما كان هذا الفرد أو محكوماً ، وغنية كانت هذه الطبقة أم فقيرة . . . كفيل بأن يحقق السلام في المجتمع ، لأنه يسوس الجميع لمصلحة الجميع .

إن محمداً رسول الله وحاكم المسلمين الأكبر كان يُقيد من نفسه كما روى عمر بن الخطاب . وكان يقول لأهل بيته : « يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً . ويا صفية عمة رسول الله

لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالى
لا أغنى عنك من الله شيئاً » (١)

وأبو بكر ، الخليفة الأول وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقف
عقب انتهاء البيعة له فيقول : « أما بعد أيها الناس — فإنى قد وُلِّيت عليكم
ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » إلى أن يقول
رضى الله عنه : « أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ، فإن عصيتُ الله ورسوله
فلا طاعة لى عليكم » . فيقر القاعدة الإسلامية الكبرى فى الحكم وحدوده .
هذا النظام الإسلامى كفىل باستقامة الرعاة ورضى الرعية ، وبإقرار
السلام بينهما وتوطيده ، لا بالعسف والجور ، ولا بالكبت والإجبار ، ولا بالقسوة
والجبروت ، ولا بالخوف والذل ؛ ولكن بالرضى والقبول والطاعة المنبعثة من
أعماق الضمير ، لارياء ولا نفاقا ، ولا تظاهراً كذابا .

إنه وسيلة من وسائل الاستقرار ، لاتفضلها وسيلة ولا تعدلها . وهو حلقة
من حلقات السلام الشامل ، غير منفصلة من السلسلة المتناسكة ، فى فكرة
الإسلام الكبرى عن الحياة .

ضمانات العدالة القانونية

يستمد الحكم الإسلامى عدالته أول ما يستمد من عدالة القانون ذاته .
فهو كما أسلفنا ليس من صنع فرد ، ولا من صنع طائفة ، حتى تظن به الظنون ،
ويخشى أن يعيل مع الهوى ، أو أن يتلبس بالخطأ ، فيفوته تحقيق العدالة
المطلقة .

(١) متفق عليه .

فأما عند التنفيذ فقد ناط الإسلام ذلك بوضوح القانون ، وضمير القاضى ورقابة الجماعة . وكل فرد فى الجماعة الإسلامية منوط به هذه الرقابة ، منوط به أن يدفع الظلم حين يقع ، وأن ينبه الحاكم حين يظلم ، والقاضى حين يخطئ ، وإنه ليبوء بالإثم حين يكتم الشهادة ، أو حين يقر الخطأ ، ولا ينبه إليه إذ يراه . والعدل الذى يتطلبه الإسلام هو العدل المطلق الذى لا يتأثر بالحبية والشئان ، ولا بالمال والجاه والحكام . وآيات العدل فى القرآن صارمة حازمة حاسمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ . إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا . وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَبِإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ^(١) » .. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ^(٢) » .. « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ، لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَاكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ^(٣) » .. « وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ^(٤) » .. « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَفُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ^(٥) » .. « وَلَا تَأْكُلُوا

أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوهُا إِلَى الْحُكَامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ
أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(١) .

وفي الحديث : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمامٌ
عادل ، وأبغضُ الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلساً إمامٌ جائر ^(٢) » .
وإن تاريخ الإسلام ليحتفظ بأمثلة ونماذج لا تحصى على العدل المطلق
الذي حققه الحكم الإسلامي حتى في الأيام التي انحرف فيها « الخلفاء ! » عن
أعمال الإسلام ، فقد بقيت ضمائر القضاة وبقظة الجماعة حراساً على العدالة ،
تستمد سلطانها من خشية الله والخوف من نقمته ، إذا تهاونت ، أو غشّت ،
أو سكنت على البغي والجور .

وليس المجال هنا مجال الحديث عن العدالة في الإسلام ، فنكتفي بنموذجين
اثنين من النماذج الكثيرة التي وعها التاريخ :

وجد عليٌّ درعه عند رجل نصراني ، فجاء به إلى شريح القاضي ، وقال :
إنها درعي ، ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح ذلك النصراني : ما تقول
فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصراني : ما الدرع إلا درعي ، وما أمير
المؤمنين عندي بكاذب . فالتفت شريح إلى عليٍّ يسأله : يا أمير المؤمنين !
هل من بينة ؟ فضحك عليٌّ وقال : أصاب شريح . مالى بينة !

وكذلك قضى القاضي للنصراني بالدرع فأخذها ومشى .. إلا أن الرجل
لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ..
أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد
أن محمداً عبده ورسوله ، الدرع درعك يا أمير المؤمنين ، اتبعت الجيش وأنت

منطلق من صيفين ، فخرجت من بعيرك الأورق . فقال على : أما إذ أسألت
فهي لك .

وجلس أبو يوسف للقضاء فاختصم إليه رجل مع الهادى الملك العباسى
فى بستان . فرأى أبو يوسف أن الحق مع الرجل ، وأن للسلطان مع ذلك
شهوده . فقال : إن الخصم يطلب أن يحلف الهادى على أن شهوده صادقون !
وهنا نكل الهادى عن اليمين — لما يعتقد فيها من ميانة — فرد أبو يوسف
البستان على صاحبه .

وحين يطمئن الأفراد فى المجتمع إلى أن القانون الذى يحاكون به هو
من صنع إلههم العادل . وأن الحاكم الذى يدبر أمورهم ليست له حقوق زائدة
عن حقوقهم . وأنه مدين بهذا القانون دينوتهم . وأن القاضى الذى يتولى
القضاء لا يستمد حكمه من الهوى ، ولكن من قانون الله والخوف من الله .
عندئذ تطمئن نفوسهم وتستقر ، ويقوم السلام الاجتماعى على أحد أركانه
السليمة . ركن الضمانات العادلة فى الحكم والقضاء .

ضمانات الأمن والسلامة

لا يمكن إقرار السلام فى جماعة لا يتوفر فيها الأمن العام ، ولا السلامة
لجميع الأفراد . ولقد سبق فى الحديث عن « سلام الضمير » أن الإسلام يوفر
للفرد ضمانات أمنه وسلامته فى حياته الجماعية ، ليصل من هذا إلى بث السلام
فى ضميره وتفكيره .

هذا الأمن وهذه السلامة هى ضمانات المجتمع أيضاً . فالفرد والجماعة
فى الإسلام ليسا عدوين وليسا ندين . إنما هما خلية واحدة فى صورتين : الفرد

فردا . والفرد مشتركا في جماعة . وقد نشأت هذه الصورة من طبيعة الإسلام واستمداد شريعته من الله لا من إنسان . فالفرد لا يشرع للجماعة في الإسلام والجماعة لا تشرع للفرد . إنما يخضع الفرد وتخضع الجماعة لذلك القانون الإلهي الذي يرعاهم جميعا .

وحين تتقرر هذه الحقيقة يصبح أمن الفرد الشخصي هو أمن الجماعة السكلى ، وأمن الجماعة العام هو أمن الفرد الخاص ، بلا تعارض بينهما ولا انفصام .

إن كل فرد سوى ذو مصلحة مباشرة في توفير الأمن العام للجماعة ، فهذا الأمن لا يكتبته ، ولا يقوم على حسابه ، ولا يحاربه في هدف صالح ، ولا في غاية مشروعة . وإن الجماعة لتؤدي دورها كاملا حين تضم جوانحها على أفراد كل منهم أمن سالم غانم ، فلا مصلحة لها في كبتهم أو ظلمهم أو غلهم عن النشاط .

فأما الشواذ المنحرفو الفطرة ، فهم لا يوصفون هذا الوصف لأنهم أخلوا بقانون وضعه فرد لمصلحته ، أو وضعته طبقة لفائدتها كما هو الحال في القانون الأرضي . إنما هم خارجون على الله وأوامره الموضوعة لمصلحتهم هم يوصفهم أفرادا ويوصفهم أعضاء في جماعة . فإذا عوقبوا فهم لا يعاقبون باسم فرد ولا باسم جماعة . إنما يعاقبون بقانون الله وباسم الله . فليس عقابهم انتقاما منهم على يد الجماعة لأنهم خرجوا على مصالح الجماعة التي قررتها نفسها . بل تحقيق لكلمة الله ، وللصلاح العام الذي يريده الله . ومهما قست هذه العقوبة فإن المعنى الانتقامي لا ظل له فيها . فالله تعالى لا يحرص على مصالحة له خاصة وهو يسن التشريع ، إنما يريد الإصلاح العام للعباد ، ويريد إزالة أسباب

الفساد التي تعوق هذا الصلاح العام . بلا رعاية لمصلحة خاصة أو هوى دفين ؛
وفي ظل هذه الفكرة كانت الضمانات التي فرضها الله للناس جميعا .
وكانت العقوبات التي تحمل على المفسدين في الأرض منهم ، بما فسقوا عن أمر
الله المؤدى إلى الخير العام .

وأولى هذه الضمانات : ضمانة الحياة : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
إلا بالحق ^(١) » وكل نفس ككل نفس لها هذا الحق المطلق — إلا بالحق —
وقتل نفس واحدة يعدل قتل الناس جميعا ، لأنه اعتداء على حق الحياة في ذاته ،
بغض النظر عن يحمل هذا الحق ويمثله . وشريعة الله الدائمة تتضمن هذا المبدأ
في كل زمان : « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا
بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها
فكأنما أحيا الناس جميعا ^(٢) » . . « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم
خالدا فيها . وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ^(٣) »

والإسلام لا يدع ضمانة مثل هذا الحق الأساسي للضمير وحده ، وللتحذير
من عقاب الآخرة . فهو قد وضع له الضمانات القانونية نصا وتفصيلا ؛ فقرر
القصاص في حالة العمد ، والدية والفدية في حالات الخطأ ؛ وجعل القصاص
معادلا لما وقع على الحياة من اعتداء . فإن وصل الاعتداء إلى القتل كان الجزاء
القتل ؛ وإذا وقف عند الجرح كان القصاص مثله وبجسده : « يا أيها الذين
آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ^(٤) » . . « ولكم في القصاص حياة

(٣) النساء ٩٢

(٢) المائدة ٣٢

(١) الأنعام ١٥١

(٤) البقرة ١٧٨

يَأُولَى الْأَبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١) . . . « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ
بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
قِصَاصٌ^(٢) . . . « مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ^(٣) . . .
« وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا ، فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ
كَانَ مَنْصُورًا^(٤) . . . « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ، وَمَنْ
قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ — إِلَّا أَنْ
يَصَدَّقُوا — فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ . تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا^(٥) . . .

وَبِلى ضَمَانَةِ الْحَيَاةِ ضَمَانَةُ الْعَرَضِ وَالْمَالِ : « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ
وَعَرَضُهُ وَمَالُهُ^(٦) »

فَأَمَّا ضَمَانَةُ الدَّمِ فَمِثْلُ سَبْقِ بَيَانٍ ؛ وَأَمَّا ضَمَانَةُ الْعَرَضِ فَقَدْ تَضَمَّنَتْهَا عَقُوبَاتُ
الزَّانِ وَالْعُقُوبَاتُ الْقَذْفِ : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ
وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،
وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٧) » ، « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ
هُمْ الْفَاسِقُونَ^(٨) »

(١) البقرة ١٧٩	(٢) المائدة ٤٥	(٣) رواه الخمسة
(٤) الإسراء ٣٣	(٥) النساء ٩٢	(٦) الستة إلا النسائي
(٧) النور ٢	(٨) النور ٤	

وأما ضمانه المال — المال الحلال المكتسب بالطرق التي يقرها الإسلام لا بالغش والربا والاحتكار والسرقة والنهب والسلب وما إليها — فقد تضمنتها عقوبة السارق في غير اضطرار: « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا . نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ^(١) »

وتلى ضمانات النفس والعرض والمال . . حرمة المسكن ، فلا تقتحم على أحد داره بغير إذنه ، ولا يتسور عليه أحد نافذة ولا حائطاً : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ^(٢) » . . « وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ^(٣) »

ثم ضمانه الحرية الشخصية فلا تفرض عليها رقابة الجاسوسية « ولا تجسسوا ^(٤) » وضمانه الأمن في الغيبة : « ولا يغتب بعضكم بعضاً ^(٥) » والكرامة في الحضور : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ^(٦) » . . ولم يذكر القرآن عقوبات معينة على هذه الاعتداءات ، ولكن الشريعة الإسلامية تقرر التعزير . والتعزير عقوبات دون الحدود متروكة للتشريعات الجزئية ، وللقاضى بحسب الظروف . فأما العصابات التي تعيث في الأرض فساداً بالجملة ، وترتكب الجرائم

(٣) البقرة ٢٨٩

(٢) النور ٢٧، ٢٨

(١) المائدة ٣٨

(٦) الحجرات ١٢

(٥) الحجرات ١٢

(٤) الحجرات ١٢

مجتمعة ، فقد ضمن الإسلام للجماعة أن تأمن منها بتقرير عقوبات قاسية عليها ،
قد لا يستحقها الفرد على جريمة فردية ، ولكن خطر الاجتماع على الفساد خطر
خاص يتطلب عقوبة خاصة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون
في الأرض فساداً أن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ
أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ . ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ^(١) »

وبعد فهناك ضمانات الاتهام — ولها أهمية عظيمة في هذا المجال —
فيجب أن يأمن الناس الاتهام بالباطل ، أو الأخذ بالشبهات ، أو اعتساف
الأدلة دون يقين . وفي هذا الصدد يضع الإسلام قواعد محكمة ما يسر ما يقوم
على أساسها تحقيق الجنايات :

وللبدأ الأساسي ألا يؤخذ أحد بالظنة ، وأنه لا بد من عدالة الشاهد ، ووضوح
الدليل ، وأن الشبهة تدرأ الحد .. وذلك لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا
اجتنبوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ . إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا ^(٢) » ولقوله :
« يا أيها الذين آمنوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمُجَاهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا
عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ^(٣) » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ادروا الحدود
بالشبهات ^(٤) »

وقد رأينا أن الحد في الزنا يستوجب شهادة أربعة عدول ، وأن الذي
يقذف محصنة ولا يأتي بأربعة شهود يجلد ثمانين جلدة !

أما الاعتراف فيعتبره الإسلام حجة مالم تقم عليه شبهة ، فيرجع إلى المبدأ

(٢) الحجرات ١٢

(١) المائدة ٣٣

(٤) في مسند أبي حنيفة للحارثي

(٣) الحجرات ٦

السابق . وقد جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب الحد على نفسه معترفاً بجريمة الزنا ، فلم يقبل النبي اعترافه حتى استوثق منه . فقد رده ثلاث مرات وهو يعود فيعترف ، وفي الرابعة سأل الرسول : أبة جنون ؟ فأخبر أنه ليس بجنون ، فقال : أشرب خمرأ ؟ فقام رجل فاستنكبه فلم يجد فيه ريح خمر . فسأله النبي نصأ : أزنيت ؟ قال : نعم ^(١) . . وهنا فقط أقام عليه الحد ، بعد أن لم تبق شبهة في صحة اعترافه .

والاضطرار رخصة تمنع إقامة الحدود ، اتباعاً لقوله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ^(٢) . وقد عطل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حد السرقة في عام الرمادة بصفة عامة ، وعطله كذلك في حادثة فردية في سرقة غلمان لابن حاطب بن أبي بلتعة ناقة ، عند ما تبين أن سيدهم لا يعطيهم كفايتهم من الطعام ، وغرم السيد ضعف ثمن الناقة وأطلق الغلمان السارقين . وهكذا تتوافر الضمانات للفرد والجماعة في النفس والعرض والمال والحقوق جميعاً . بما في ذلك حق سلامة الإجراءات وصحة الأدلة عند الاتهام . فتكون هذه الضمانات لبنات في بناء السلام الاجتماعي في محيط الجماعة ، في ظل ذلك القانون المشروع للجميع ، لمصلحة الجميع ، دون ماغرض ولا هوى ولا محاباة .

ضمانات الحياة المعيشية

يقدر الإسلام قيمة الجانب المعيشي باقتصادياته وضروراته في حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ ولا يقل تقديره له عن أشد المذاهب المادية اهتماماً به ؛ ولكنه

(١) عن بريدة وقال صاحب مصابيح السنة إنه من الصحاح (٢) البقرة ١٣٧

فقط لا يحبس الإنسان عليه ، ولا يغفل جوانبه الأخرى ، وأشواقه العليا . وهذا هو مفرق الطريق بين تلك المذاهب وبين الإسلام .

إن الإسلام يعرف الإنسان إنساناً ؛ فيعرف لضروراته عمقها في كيانه وأصالتها في طبيعته ؛ ويعرف بجانبها لأشواقه عمقها في كيانه وأصالتها في طبيعته ؛ ومن ثم يحرص على مراعاة أشواقه وضروراته كل منها في مكانه ، وكل منها بعمقه وأصالته ؛ وكذلك تجيء تقديراته للإنسانية أسلم ، وتفسيراته للحياة أصدق ، واحتياجاته لها أوفى ، وتلبية لها أكمل .

ولا يغفل الإسلام عن أن القوانين كلها ، والضمانات جميعها ، يمكن أن تذهب ضياعاً ، إذا فقد الفرد كفايته الضرورية للعاش ، وأن أشواق روحه قد تطمس ، وإشراق ذهنه قد يخبر إذا هو فقد تلك الكفاية . ومن هنا يضع الضمانات بجانب التوجيهات لتوفير هذه الكفاية المعيشية أولاً . ثم لتحقيق التوازن الاجتماعي المطلق أخيراً .

ونحن الآن بصدد تلك الضمانات المعيشية ، فلننظر كيف يوفرها الإسلام ويكفلها :

إن وسيلة الحياة الأولى في الإسلام هي العمل . والإسلام يمنح العمل قداسة ترفعه وترفع العمال : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف ^(١) » . « ما أكل أحدكم طعاماً قط خيراً من عمل يده ^(٢) » .

والرسول يدعو إلى توفية العامل أجره قبل أن يجف عرقه ، وتوفيته له

(١) من حديث ذكره القرطبي في التفسير .

(٢) البخاري .

كاملاً . وبعض فقهاء المذهب المالكي يرى أن يكون أجر العامل نصف ربح العمل . وقد عامل النبي أهل خيبر على أساس نصف الغلة .

وعلى أية حال فالإسلام يعد العمل هو وسيلة التملك ، ووسيلة ضمان الحياة المعيشية . فإذا عجز الفرد عن العمل لسبب من الأسباب ، فعلى بيت المال — أى على الدولة — أن تعوله .

وقد فرض عمر للمولود مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتين ، فإذا بلغ زاده ؛ وكان يفرض للقيط مائة ولوليه كل شهر رزقا يعينه عليه ، ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال ، فإذا كبر سواه بغيره من الأطفال . وكذلك قرر لعجزة اليهود والنصارى فريضة من بيت مال المسلمين بوصفهم أعضاء في المجتمع عاجزين عن الكسب بسبب الشيخوخة أو العاهة .

فإذا كان العمل لا يسد الحاجة فبيت المال هو الكفيل ، كما في حالة الفقير وهو الذى يملك أقل من نصاب الزكاة ، والمساكين الذى لا يملك شيئاً ، وابن السبيل المنقطع عن ماله ، والمدين الذى ذهب الدين بماله ما لم يكن قد أنفقه في معصية . فقد شملتهم مصارف الزكاة التى تجبها الدولة من المالكين . وتصرفها بمعرفتها على المحتاجين .

ولقد أباح الإسلام للفرد أن يقاتل ويقتل من في يده طعامه أو شرايه إذا منعه عنه ، وهو فى حاجة ماسة إليه ، لأنه كحق الدفاع عن الحياة . وذهب الإمام ابن حزم فى هذا إلى اعتبار أن أهل المحلة التى يموت فيها فرد من الجوع قتلة له تؤخذ منهم ديتة ، بوصفهم هذا لأن الجماعة ملزمة بكفالة كل فرد فيها ، وتوفير الكفاية المعيشية له عن طريق الإلزام لا عن طريق الإحسان .

وهناك التكافل العائلي الذي يفرض للعاجز والمحتاج في كل أسرة نفقة مفروضة بحكم القانون على أقرب أوليائه إليه ؛ فتصبح الثروة العامة للأسرة كفيلة بكفاية كل فرد فيها تكليفاً والتزاماً لا صدقة وإحساناً .

وذلك كله غير حق الدولة في أن تفرض من الضرائب ما تشاء ، وتأخذ من أموال الأغنياء ما تشاء ، لتسد حاجات الأفراد ، أو لتقيم المنشآت والمرافق التي توفر لهم العمل وتوفر لهم الرزق . إلى غير ذلك من الإجراءات التي سنتحدث عنها بالتفصيل في موضعها عند الكلام على « التوازن الاجتماعي » . والذي يعيننا هنا هو كفالة النظم الإسلامية للكفاية المعيشية لكل فرد في الأمة قادراً على العمل أو عاجزاً عنه ، مجزاً كلياً ودائماً ، أم جزئياً وموقوتاً ، وما في هذه الكفالة من إقرار للسلام في الجماعة ، وحسم للاضطرابات التي تنشأ الجماعة .

أما الاضطرابات التي ينشأها عدم التوازن في توزيع الثروة العامة ، وفي توزيع المغام والمخارم ، وفي توزيع الحقوق والواجبات في محيط الجماعة بشكل عام ، فمما يلي عنها بيان .

التوازن الاجتماعي

إن كفالة الرزق لكل فرد ، وضمان الكفاية المعيشية للجميع ، لا تعدو في النظام الإسلامي أن تكون خطوة واحدة بدائية في طريقه إلى تحقيق عدالة اجتماعية شاملة . وهي خطوة تقوم على مبدأ إسلامي أساسي : « الرجل وبلاؤه والرجل وحاجته ^(١) » . هذا المبدأ الذي وزع عمر بن الخطاب الفيء على أساسه في أيام الإسلام الأولى ، والذي ما تزال البشرية تحاول حتى اليوم ،

(١) من كلام عمر بن الخطاب

فتحقق ، لأنها لا تأخذ بشقيه ، إنما يأخذ مذهب من مذاهبها بشق ، ويأخذ مذهب آخر بالشق الآخر ، فلا يجتمع لآيها ما جمعه الإسلام بطريقته الكلية الشاملة في علاج الحياة .

وعلى أيّ فمى خطوة واحدة — كما قلت — من خطوات الإسلام في طريقه إلى تحقيق عدالة اجتماعية شاملة ، تحقق سلاماً اجتماعياً شاملاً .

إن التوازن الاجتماعى هو القاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناء العدالة الاجتماعية ، التى ينهض على أساسها السلام الاجتماعى . وكل ماضى فى هذا الفصل من ضمانات وتأمينات لم يكن إلا مقدمات وأسبابا لتحقيق ذلك التوازن بصفة شاملة .

هذا التوازن ملحوظ فى نظام الحكم وطريقته ، وفى طبيعة التشريع وطرق التقاضى ، وفى كفالة الأمن وكفالة الرزق ، ولكنه يبلغ ذروته فى الجانب الاقتصادى العام ، جانب توزيع الثروة العامة وضوابطه وقيوده فى محيط الجماعة . وهو يبلغ إلى هذه الذروة بوسائل شتى نستعرض منها فى اختصار أهمها وأبرزها ، إذ كان هذا الكتاب خاصاً بالسلام العالمى والإسلام ، لا بالعدالة الاجتماعية فى الإسلام^(١) .

يقيم الإسلام هذا التوازن على عدة مبادئ أساسية عامة ، يقررها كأصول لنظريته فى المال :

(١) يراجع بتوسع فى هذا الموضوع كتاب : « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » وكتاب « معركة الإسلام والرأسمالية » للمؤلف .

المبدأ الأول : مبدأ ألا يكون المال متداولاً في أيدي الأغنياء دون الفقراء .

ويقدره بنص صريح : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ^(١) » . تعليلاً لتصرف واقعي من تصرفات الرسول . فيأخذ حكم المبدأ العام . ذلك حينما أعطى فيء بني النضير كله للمهاجرين الفقراء دون الأنصار الأغنياء — فيما عدا رجلين فقيرين منهم لا اشترا كهما في الوصف مع المهاجرين — كي يعيد التوازن الاقتصادي بين فريق المسلمين في ذلك الأوان . مع أن هؤلاء الأنصار كانوا قد آووا المهاجرين وشاركوهم أموالهم ودورهم ومتاعهم ، وآخوهم إخاء كاملاً يقوم مقام الإخاء في الأنساب ؛ بحيث لم يكن هناك ما يفرضه عليهم الإسلام غير ما صنعوا متطوعين من مقاسمة لإخوانهم الفقراء فيما وهبهم الله من كل شيء .

كذلك تقرر هذا المبدأ عزيمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو — وإن لم تمهله الطعنة الغادرة لينفذها — قد صرح بها ، فلم ينكر عليه أحد من المسلمين ، وبذلك تأخذ صفة المبدأ الإسلامي العام : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » وقد اعتزم أن يستدرك هذا الذي فاتته في العام القابل ، مع التسوية المطلقة في عطاء المسلمين من الفئ .

وبهذا المبدأ توضع القاعدة الأساسية لتوزيع الثروة في الأمة الإسلامية . ولا يهم أن يكون هذا المبدأ قد عطل في بعض الفترات ، ففي يد الدولة المسلمة

أن تنفذه بالطريقة التي تتطلبها الأوضاع الاقتصادية في كل زمان ، والتي تتطلبها السلام الاجتماعي في كل مكان .

وهذا المبدأ يخص مبدأ حق الملكية الفردية وبقيدته ، ويجعله دائماً خاضعاً لسلطة الدولة في إعادة توزيع الثروة العامة حسب مقتضيات الأحوال .

والمبدأ الثاني : مبدأ « المصالح المرسلة » ، أى المصالح العامة التي لم يرد

فيها نص خاص ، والتي يخول الإسلام للدولة ، بل يوجب عليها أن ترعاها بحسب المقتضيات والظروف . وقد شرحتها في كتاب « العدالة الاجتماعية » بتوسع ، فأكتفي هنا بالنص على أن للدولة تطبيقاً لهذا المبدأ ، أن توظف في أموال الأغنياء — كما يقول الإمام مالك — أى أن تأخذ من أصلها — لا من الربح ولا في صورة ضريبة — ما تقتضيه حاجة الخزانة العامة للانفاق على مصالح المسلمين العامة ، وما تتطلبه وقاية المجتمع ووقاية الوطن الإسلامى من نفقات تعجز عنها الموارد العادية للدولة ، ثم لا ترد ما أخذته من رؤوس الأموال^(١) .

وفي هذا المبدأ تقييد كذلك لحق الملكية الفردية وتحديد ؛ يجعله دائماً خاضعاً لحاجات الدولة العامة أى لحاجات الجماعة ، وخاضعاً لسلطة الدولة بلا قيد إلا قيد الحاجة الاجتماعية في عمومها . وفي ظله تملك الدولة تحقيق التوازن الاقتصادى ، لا عن طريق الضريبة فحسب بل بانزعاق أنصبة من الملكية الفردية ، دون تعويض ودون رد ، لتتفق في المصالح العامة للجماعة .

(١) يراجع كتاب « مالك » للأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول — فصل « المصالح المرسلة » .

والمبدأ الثالث : مبدأ سد الذرائع . و « الذريعة معناها الوسيلة . ومعنى

سد الذرائع رفعها ، ومؤدى الكلام أن وسيلة المحرم محرمة ، ووسيلة الواجب واجبة ، فالفاحشة حرام ، والنظرة إلى عورة الأجنبية حرام لأنها تؤدي إلى الفاحشة . والجمعة فرض ، فالسعى لها فرض ، وترك البيع لأجل السعى فرض أيضا . والحج إلى البيت الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله . . . والأصل في اعتبار سد الذرائع هو النظر في مآلات الأفعال ، وما تنتهى في مجلتها إليه . فإن كانت تتجه نحو المصالح التي هي المقاصد والغايات من معاملات بني الإنسان بعضهم مع بعض كانت مطلوبة بمقدار يناسب طلب هذه المقاصد . وإن كانت لا تساويها في الطلب . وإن كانت مآلات تتجه نحو المفاسد ، فإنها تكون محرمة بما يتناسب مع تحريم هذه المفاسد ^(١) .

والذي يهمنا هنا في مجال التوازن الاجتماعي هو أن عدم التوازن في توزيع الثروة العامة من شأنه أن يؤدي إلى مفساد اجتماعية شتى ، ليس أقلها تأريث الضغائن والإحن بين الأفراد والجماعات ؛ وقعود الهمم عن الدفاع عند الخطر ، إذ لا يجد المحرومون مصلحة لهم في الدفاع عن وطن يظلمهم ويحرمهم . . . الخ .

فن واجب الدولة إذن أن تمنع هذه الوسيلة المؤدية حتما إلى غايات وبيلة . وهنا كذلك نجد نفس القيود على حق الملكية الفردية ؛ ونجد في يد الدولة مبدأ بعد مبدأ لتتدخل على النحو الذي يمنع الضرر ويحقق المصلحة ؛ وإلا كانت آئمة مقصرة في اتخاذ الحيلة ؛ ومن واجب الجماعة حينئذ أن

(١) كتاب مالك للأستاذ محمد أبو زهرة .

تعزم أمرها ، وترعى مصالحها ، وترد الدولة المقصرة إلى حدود الواجب وتنفيذ الشرائع .

والمبدأ الرابع : مبدأ تحريم الربا . فالإسلام يقرر أن لا جزاء إلا على الجهد . وبما أن رأس المال في ذاته ليس جهداً ، فهو لا يربح بذاته ، إنما طريقة الربح الوحيدة هي العمل ؛ فلا يجوز إذن أن يكون مجرد وجود المال عند صاحبه وسيلة لزيادة المال ، بإضافة فائدة إليه عند اقتراضه . .

هذا المبدأ الأساسي في الإسلام يحول دون تضاعف المال بذاته ، مما يقع الآن في النظام الرأسمالي ؛ ويضع قيداً ضخماً في طريق تضخم الثورات على حساب حاجة الأفراد للمال ، واضطرارهم لاستدائته بالربا ؛ كما يمنع سبباً من رئيسياً من أسباب الاستعمار والحروب الدولية ؛ ويعطي العمل قيمته في مجال الإنتاج ، ويحقق العدالة بين الجهد الحقيقي والجزاء ، ويمنع أن ينال القاعدون الكسالى جزاء لا يستحقونه ؛ وهم ينالونه في العالم الرأسمالي بمجرد توظيف أموالهم في البنوك وغير البنوك ؛ فيضمنون الربح الحرام وهم قاعدون ؛ وتتضاعف ثرواتهم وتتضخم ؛ وتخل بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي على نحو ما هو مشاهد في ذلك العالم الرأسمالي المتعفن .

والمبدأ الخامس : مبدأ تحريم الاحتكار . ويشمل الاحتكار جميع عقود الامتياز . والاحتكار يخلق قوة طاغية في يد المحتكر ، لا يستمدها من الجودة والإتقان ، وحسن الخدمة وكفايتها ؛ إنما يستمدها من وجود عقد الامتياز في يده ، أو من احتكاره للسلعة في السوق . هذه القوة الطاغية تستخدم دائماً ضد مصالح المستهلكين . أي ضد مصلحة الجماعة . وها نحن

أولاء ندوق وبال أمرنا من شركات الاحتكار في شتى مرافق الحياة ؛ ونحن عاجزون عن الوقوف لها ، لأنها تتخذ من حاجتنا إلى السلع وإلى المرافق سلاحاً لا تملك له مقابلاً ؛ وهي تملك أن ترشو القائمين بالحكم والمراقبين على أعمالها ، وتسترد قيمة هذه الرشاوى مضاعفة من الجماهير المغلوبة على أمرها أو تحفى السلعة المحتكرة في أشد أوقات الحاجة إليها . وبذلك كله يختل التوازن في المجتمع ، لأن فريقاً قليلاً منه يملك قوة لا مقابل لها في أيدي الآخرين ؛ ويختل التوازن الاقتصادي لأن الاحتكار وسيلة لتضخيم الثروات بأيسر جهد ، وعن طريق حرام ، وبوسائل مريبة ، وبإفساد الدم والضمائر والأخلاق .

والمبدأ السادس : مبدأ شيوع الموارد العامة . وهو ما يسمى في زماننا هذا : « تأميم المرافق العامة » قياساً على شيوع الماء والكلاً والنار التي نص عليها الحديث بوصفها موارد عامة لا يجوز تحديدها بملكية خاصة ، وبوصفها ضروريات للحياة يجب أن تظل مشاعة . وقد رتب المالكية على هذا شيوع الركاز فلا يؤول إلى ملكية خاصة ، « ويرى المالكية في أشهر أقوالهم أن ليس شيء من الأنواع الثلاثة : المعادن والفلزات والسوائل في محالها (مناجها) من الأموال للباحة حتى يتملكها من وجدها واستولى عليها . . وإنما هي ملك للمسلمين استولوا عليها باستيلائهم على أرضها لأنها منها ، وثمرتها من ثمراتها ، ولسكنها مع ذلك لا تعد تابعة لها ، فلا تملك بامتلاكها . إذ ليس لئلهما تملك الأرض وتطلب عادة ، فبقيت للمسلمين ^(١) » .

(١) كتاب « أحكام المعاملات » للأستاذ على الحقيف الأستاذ بكاية الحقوق جامعة فؤاد

وما من شك أن رد الملكية العامة في هذه المرافق للجماعة ، فيه قضاء على سبب هام من أسباب فقدان التوازن الاقتصادي في المجتمع ، لأن هذه الموارد العامة تمثل القسم الأكبر — أو قسماً ضخماً — من الثروة العامة ، تملكه في النظام الرأسمالي شركات أو أفراد . وتنشأ من هذه الملكية آثار سيئة في داخل الجماعة ، كما أنها تصبح سبباً من أسباب النزاعات الدولية ، والأعيب الاستعمار .

والمبدأ السابع : مبدأ تحريم السرف والترف . والإسلام لا يحب للناس الشطف والحрман ، بل يدعوهم إلى الاستمتاع بالطيبات ، ويستنكر تحريمها والصد عنها ، ويستنكر السرف والترف ، لأنهما ليسا من تلك الطيبات المطلوبة الحلال : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ^(١) » .

والترف منكر في الإسلام لما يخلفه من انهيار وترهل في بنية الفرد وفي بنية الأمة ، ولما يبتثه من فساد وتعفن في كيان الفرد وفي كيان الجماعة فالمتعرفون كانوا على مدار التاريخ هم أسباب انهيار المجتمعات والشعوب : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ^(٢) » .

والذى يهمنى أن نبرزه هنا هو أن الترف فى أمة لا يقوم إلا على حساب الشطف فى فريق كبير من أبنائها ، فمن دماء الجماهير وجهودها ، ومن ضرورياتها وحاجاتها ، يستمد هذا النفر المترف لذاته وكالياته ، مما يثير أحقاد النفوس وحزازات الصدور ، ومما يفقد الجماعة روح السلام والإخاء ، ويقيم بعضها حربا على بعض ، لتناقض المصالح ، واختلاف المطامح . . ذلك كله فضلا على القذارة التى يخلفها المترفون فى المجتمع ، والفضلات الآسنة المتخلفة عن إشباع شهواتهم المريضة .

ولما كان وجود المال فى أيدي هؤلاء المترفين هو الذى يهين لهم هذه اللذائذ الدنسة ، وتلك الشهوات القذرة ؛ وفى الوقت ذاته يؤجج العداوات والحزازات ، ويخلخل بناء المجتمع ويهزه من أساسه ، فإن « مبدأ أسد الذرائع » يتدخل هنا ، ويفرض على الدولة أن تنزع الوسيلة الخطرة من أيدي العابثين بالنار . فبدأ سد الذرائع هو مبدأ الوقاية من الاحتمالات المتوقعة . وهو الذى يحرم الوسيلة إذا كانت تؤدي إلى غاية ضارة ، ولو كانت هذه الوسيلة بذاتها غير محرمة . ووجود المال فى أيدي هؤلاء هو الوسيلة التى يجب منعها اتقاء للعاقبة ، كما هو بين فى هذا المجال

والمبدأ الثامن : مبدأ تحريم الكنز . « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعباب آليم ، يوم يُحْمَى عليها فى نار جهنم ، فتسكوى بها جبابهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون ^(١) » .

ذلك أن حبس المال عن التداول ، والكف عن الإنفاق في سبيل الله
أى في تلبية الحاجات والمصالح التى تتم بها كلمة الله . من شأنه أن يفسد التوازن
المالى والتجارى والاقتصادى عامة ، ويفسد معه التوازن الاجتماعى ، ويؤدى
بذلك الفساد إلى محظورات ومحرمات يجب — تبعاً لمبدأ سد الذرائع —
منعها من الوقوع ومنع أسبابها التى تؤدى إليها . وحسب هذا التخريج لا تصبح
مسألة الكنز مسألة شخصية أو فردية ، ولا جريمة ذاتية يترك حسابها إلى الله
في الآخرة يوم تكوى الجباه والجنوب والظهور . إنما تصبح مسألة تشريعية ،
تطالب الدولة بمنعها عن طريق التشريع وعن طريق التنفيذ تحقيقاً للمبدأ
الذى أسلفنا .

وشرائع الإسلام ونظمه وحدة متكاملة متناسقة ، وكل مبدأ من مبادئه
يفضى إلى الآخر ، حيث تلتقى كلها عند الفكرة الكلية للإسلام ، فلا يجوز
عند التشريع أخذ المسائل فرادى مبعثرة ، بل ينبغى الرجوع دائماً إلى الفكرة
الكلية الشاملة .

وما من شك أن حبس المال عن الإنفاق ذو ضرر واضح بارز واقع .
فإن كان هذا الحبس عن بخل وتقتير فهو داخل في نص النهى في قوله تعالى :
« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ^(١) » ، وإن كان عن كراهية للإنفاق
في سبيل الله فهو داخل في نص النهى في قوله : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا
بأيديكم إلى التهلكة ^(٢) » باعتبار الكف عن الإنفاق في سبيل الله « تهلكة »
للفرد وللجماعة . ومن هنا يدخل مبدأ سد الذرائع من أوسع الأبواب .

وقد احتج بعض المحترفين من رجال الدين بالقول : بأن ما أدبت زكاته ليس بكنز ، للتدليل على أن حق المال هو الزكاة وحدها ، وأن لا حرج في الكنز بعد ذلك . ولكن هنالك حديثاً صريحاً يبين حدود الكنز . ويبين قيم يحتفظ بالباقي بعد الزكاة حتى لا يكون كنزاً . ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من جمع ديناراً أو درهماً أو تبرأً أو فضة . ولا يعده لغريم ، ولا ينقعه في سبيل الله ، فهو كنز يكرى به يوم القيامة ^(١) » .

وقد أبان هذا الحديث ما يجوز الاحتفاظ به ، والأغراض التي يجوز الاحتفاظ به من أجلها ، وما عدا هذا فهو كنز ينطبق عليه نص التحريم ؛ وهكذا فليفهم الإسلام على ضوء مبادئه السكينة العامة في هذا المجال .

والمبدأ التاسع : مبدأ من أين لك هذا . فليس حق الملكية الفردية مطلقاً في الإسلام كما يتصور بعض الجهال بالدين وبعض المحترفين . إن الملكية الفردية لا تقوم إلا على أسباب صحيحة مشروعة ، لا تخالف عن مبادئ الإسلام العامة في المال ، ولا عن مبادئه العامة في الأخلاق كذلك . فهي لا يمكن أن تقوم على الهب والسلب والغصب والسرقة والرشوة والغش أو الربا والاحتكار . . وما إليها . ومن ثم فمن حق الدولة دائماً أن تبحث عن أسباب التملك ؛ وترى إن كانت مشروعة أو غير مشروعة . فإن كانت مشروعة فالملكية لصاحبها مقيدة بالقيود التي أسلفنا ؛ وهي تحت تصرف الدولة في كل وقت لتحقيق بها المصالح المرسلة ، وتسديها الذرائع ، وصاحبها ممنوع من السرف والترف بها ؛ وممنوع من كنزها وجسبها ؛ وللدولة أن تأخذ منها لميت المال ، وتأخذ فضولها فتردها على الفقراء وفضولها هو كل ما زاد على ما في الحديث .

(١) ذكره القرطبي في التفسير .

هذا كله إذا كانت أسباب التملك صحيحة ومشروعة . فأما إذا لم تكن صحيحة فالإسلام لا يعترف بوجودها من الأساس ؛ ولا يرتب لها حقوق الصيانة والمناعة التي يرتبها للملكية القائمة على أصل صحيح . ومن حق الدولة أن تضمها إلى الخزانة العامة . كلياً أو جزئياً . والسوابق على عهد عمر بن الخطاب تعطى الدولة هذا الحق كاملاً ، سواء في نطاق المبادئ الملكية للإسلام ، أو في نطاق السوابق التاريخية الواقعية .

وهذا هو الإسلام . يقرر حق الملكية الفردية ، ليلبي في النفس البشرية ميلها الفطري العميق إلى التملك والاستحواذ ، كي تبذل أقصى نشاطها ، وتنتج أكبر نتائجها ، وتعطي الحياة كل ما أودع الله فيها من الطاقة ، فتتمو الحياة ما قدر لها الله النماء . . ثم يضع الحدود والقيود لهذا الحق ، فلا يؤدي أحد في خلق ولا في معاش ؛ ثم يجعل للجاعة في النهاية حقها المطلق في هذه الملكية الفردية عن طريق الدولة تحقيقاً للمصالح العامة للجاعة . . وبهذا يحقق كل مزايا الملكية الفردية التي تحتج بها الرأسمالية ؛ وينفي عنها كل عيوبها التي تحتج بها الشيوعية . ويقوم وسطاً بين طرفي الغلو ، متساوياً مع الفطرة السوية التي لا عوج فيها ولا شدوذ .

والمبدأ العاشر : مبدأ الزكاة : ذلك المبدأ الذي تحاول أجهزة الرأسمالية الطاغية أن تبرزه وحده بوصفه أقصى ما فرض الإسلام في المال من مبادئ ، كي تغطي على الناس وتحذرهم ! والذي تحاول أجهزة الشيوعية حيناً والصليبية حيناً أن تبرزه بهذا الوصف ، تهوّن من شأن الضمانات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام !

ولقد تعمدت أن أتأخر به إلى موضعه هنا ، في نهاية المبادئ الإسلامية الأساسية ، ليعرف الناس كيف تدلس عليهم أجهزة الرأسمالية باستخدام المحترفين من رجال الدين ؛ وكيف تدلس عليهم الشيوعية والصليبية — أحياناً أيضاً — ببعض من ينتسبون إلى الدين !

وما كان ذلك تهويناً من شأن هذا المبدأ الجليل ، ولكن بياناً للحق المؤيد بالدليل . ولقد قلت في كتاب : « معركة الإسلام والرأسمالية » عن مبدأ الزكاة ما أكتفى هنا بإعادته ، فقيه هنا كذلك غناء :

« وينبغي أن نضيف إلى هذه العوامل الطبيعية عامل الضريبة الدائمة : ضريبة الزكاة ، هذه الفريضة التي تأخذ بنظام ثابت ما يعادل ٢٥ ٪ من أصل الثروة كل عام

» وهنا كلمة يجب أن يقال عن هذه الفريضة التي يشوهها المغرضون والمتحايلون ، فيصورونها بصورة الإحسان المذل لكرامة الانسان !

« إن الدولة هي التي تجمع هذه الضريبة كما تحصل أى ضريبة ؛ وإن الدولة هي التي تتولى إنفاقها بنظام معين ، قابل للتطور حسب حاجات المجتمع وأوضاعه . فأين هي الدلة في نظام كهذا النظام ؟ إن المغرضين والمتحايلين يحاولون دائماً أن يرسموا صورة واحدة مزورة لعملية الزكاة : غنى يتبرع ويتصدق وفقير يأخذ ويشكر ! ويد عليها معطية تحتها يد سفلى آخذة .. وجهها لوجه ، مباشرة بين فرد وفرد !

« من أين جاءوا بهذه الصورة الشائنة المزورة ؟ لست أدري !
« أنذا فرضت الدولة اليوم ضريبة للتعليم ، جعلت حصيلتها خاصة

بالأغراض التعليمية البحتة ، من بناء للدور أو أداء للأجور ، وإنفاق على أدوات الطلاب وكتبهم وغذائهم كذلك . . قيل : إن هذا نظام للتسول والشحاذة ، يهين كرامة المعلمين والطلاب ، لأن هذه الأموال مأخوذة من أموال الأثرياء منفقة في شؤون الفقراء ؟ !

« أنذا سنت الدولة قانونا يجبي ٢٥ ٪ من كل ثروة ، كثرت أم قلت ، لتكوين الجيش وتسليحه ، وجعلت هذه الضريبة وقما على هذا الباب من أبواب النفقات العامة . . قيل : إن الجيش يتسول ، وإن كرامته تستذل ، لأن الدولة أخذت نفقاته من أموال الأثرياء . والثرى والفقير في أدائها سواء ؟ !

« إن الزكاة ضريبة كهذه الضرائب ، تجبها الدولة ، ثم تنفقها في وجوه معينة . تجبها كلاً ثم تنفقها أجزاء ؛ وليست إحساناً فردياً يخرج بعينه من يد ليعطي بعينه إلى يد . وإذا كان بعض الناس اليوم يخرجون زكاة أموالهم ، فيوزعونها بأيديهم فذلك ليس النظام الذى فرضه الإسلام ؛ إنما يصنع هذا البعض ذلك ، ويسلك هذا الطريق المباشر ، لأن الدولة لا تجبي هذه الضريبة بيدها ، لتنفقها هى بعرفتها ، فى تلك الوجوه القابلة للتصرف بحسب تغير الأحوال .

« ولكن الغفلة والاستغفال يبلغان فى مصر ، أن يتحدث بعض الناس عن الزكاة على أنها إحسان فردى يذل النفوس ويعودها الاستجداء ! .

« والجراة على الحقائق السافرة الأولية إلى درجة التبجح ، لاتنشأ إلا من غفلة المستمعين أو القراء إلى حد البلاهة . وكلاهما يتوافر فى البيئة المصرية والحمد لله !

بل يتوافر في بيئة من يسمونهم « المثقفين » ! الذين يستمعون لكل طاعن في نظم الإسلام بترحيب وبشاشة ، لكي يثبتوا أنهم مثقفون حقاً ! ألسنا في عصر الأقسام وجيل الأقسام ؟ ! » .

الاطمئنان إلى القانون

... . والآن ننتهى إلى الوسيلة الأخيرة التي يسلكها الإسلام لتحقيق السلام في المجتمع .. تلك هي طبيعة الشريعة الإسلامية وعلاقة النفس البشرية بها ، واستجاباتها لها . وهي ذات أثر حاسم في إقرار السلام الاجتماعي في النهاية وتحقيق تلك الضمانات والتأمينات التي سبق الحديث عنها جميعاً .

إنه لا بد للجماعة البشرية من قانون ينظم علاقاتها ، ويصرف أحوالها ، ويحيلها كتلة متضامنة ذات كيان ، لا أفراداً متناثرة بغير نظام .

والقانون لا يؤدي دوره هذا بنجاح ما لم يكن مطاعاً نافذاً . ولن يكون نافذاً ولا مطاعاً إلا أن تطمئن إليه النفوس ؛ وتحس بينها وبينه بالتجاوب والتعاطف ؛ وتلمس فيه تحقيق مصالحها القريبة وأهدافها البعيدة .

والخروج على القانون ينشأ في الغالب من عوامل ثلاثة تتجمع إليها كافة العوامل الفرعية :

الأول : هو الشعور بأنه غير عادل ، لأنه يحقق مصلحة فرد أو أفراد أو طبقة على حساب الآخرين الذين يحسون في هذه الحالة أن القانون وسيلة من وسائل تسخيرهم لسواهم ، دون فائدة تكافئ جهودهم ؛ وأن عليهم الغرم وغيرهم الغرم ، عن طريق هذا القانون .

الثاني : هو الإحساس بالغربة بين روح القانون وروح الجماعة التي تحكم به لأنه لا يلبي حاجاتها الشعورية ، ومصالحها المادية ؛ ولا يماشى أوضاعها ، ومقتضيات حياتها ، بسبب غرته عن روحها وظروفها وتاريخها .

الثالث : هو محاولة الفرد تحقيق شخصيته بالخروج على القانون الذي وضعه له سواء ، سواء كان الذي وضع القانون فرداً أو هيئة أو جماعة ، لأن القانون — على أية حال — يتضمن قيوداً ، والاستعلاء على هذه القيود ، في حالة القانون الذي يضعه الإنسان للإنسان — يحقق الشخصية الذاتية في شعور الفرد حين يخرج عليه سراً أو جهراً .

وما من قانون من القوانين الوضعية يمكن أن يبرأ من عيب أو أكثر من هذه العيوب . وبخاصة العيبان الأول والثالث ، فهما مجتمعان غالباً في كل قانون أَرْضِي عِرفته البشرية . لا تبرأ منها تلك القوانين التي تشرعها البرلمانات المنتخبة ؛ ولا القوانين التي تسنها طبقة العمال الحاكمة في الدول الشيوعية .

فأما في حالة البرلمانات المنتخبة في الدول الرأسمالية ، فحكاية الاختيار الحر من الشعب خرافة . والبرلمان يخدم في أعماقها بضخامة هذه الخرافة . لأن الناخب يدرك أنه غير حر في إرادته الحقيقية ، وعيشه ولقمة الخبز التي تحفظ حياته في يد صاحبه . المال الذي ينتخبه ! وعلى فرض المستحيل في استمتاع الناخب بحريته المطلقة وهو يختار الرجال للبرلمان . فهذا البرلمان بحكم تكوينه من طبقة معينة تقل فيه العناصر التي هي من الجماهير حقيقة لا دعاية . ومفروض أن ما يسنه من تشريعات ملحوظ فيه مصلحة رؤوس الأموال ، ولا يمكن أن يبرأ من هذا الميل بحال من الأحوال !

وأما في حالة حكم الطبقة المالية ، مفروض سلفاً أن هدف التشريع كله هو تحطيم « الطبقة البرجوازية » ومهما تكن جموع العمال هي الأغلبية ، فهناك فريق آخر ليس التشريع في صفه ، بل هو ضده على وجه اليقين ، ضده بصراحة وعن عمد وإصرار !

وذلك كله في البلاد التي تستمد تشريعها من واقعها ، ولا تستورده من الخارج استيراداً على نحو ما يقع الآن في مصر وبعض البلاد الإسلامية . أما في حالة الاستيراد والتقليد . فيضم العيب الباقي ، وتقع الفجوة بين روح القانون وروح الجماهير ، لأنه غريب عليها ، لم يستمد من روحها وأوضاعها وحاجاتها . وتقع مضحكات مبكيات في تطبيق القانون المستعار ، لو كان للذين يضعونه قسط من البصيرة ، وقسط من آدمية التفكير ، ما ظلوا يستمدون التشريع من حيث يستمدونه في اطمئنان^(١) !!

وعلى حين لا تملك القوانين الوضعية جميعها ، في قديم الدهر وحديثه أن تبرا من عيب أو أكثر من تلك العيوب . تقف الشريعة الإسلامية وحدها مبرأة من تلك العيوب جميعاً ، بلا نظير ولا شبيهة .

إنه لا مجال في الشريعة الإسلامية لشعور فرد أو جماعة بأن القانون ليس عادلاً بالقياس إليها . لأن أسباب الانحراف عن العدل غير قائمة ، بحكم أن المشرع للجميع هو إله الجميع ، فلا مصلحة له في محاباة فرد أو جماعة . وبهذا تنمحي من المجتمع الإسلامي فكرة الطبقة ، تنمحي بحكم أن ليس هناك قانون يلحظ مصالح طبقة معينة ، فيوفرها لها على حساب طبقة أخرى ، فكل فرد

(١) يراجع كتاب « نائب في الأرياف » للأستاذ توفيق الحكيم . وكتاب : « الإسلام وأوضاعنا القانونية » للأستاذ عبد القادر عودة .

له حقوق وعليه واجبات متكافئة مع هذه الحقوق . وهكذا يظل المجتمع الإسلامي مجموعة أفراد تتكافأ حقوقهم وواجباتهم في القانون ، لاجموعة طبقات تتصارع مصالحها وتتصادم ، ويقضى القانون لبعضها على بعض ، في هذا الجانب أو ذاك .. وبناء على ذلك فلا ظل للنظام الطبقى في الإسلام ، وبالتالي لا وجود للصراع الطبقى ، حين تنفذ الشريعة الإسلامية كاملة في عالم الحسب وعالم المال ، ولا وجود للشعور بانتفاء العدالة القانونية ، ومحاولة الخروج على القانون بدافع من هذا الشعور . إنما تبقى الانحرافات الفردية ، وهذه ليست بذات بال .

ولا مجال كذلك للغربة بين روح التشريع وروح الأفراد والجماعات ، فالشريعة الإسلامية بحكم ما فيها من تناسق شامل ، عرضاً منه نماذج كثيرة فيما مضى ، تلبى حاجات النفس البشرية في كل مجال للنشاط الإنساني فهي تلبى حاجة الجسد وحاجة الفكر وحاجة الروح ، في شعائرها وشرائعها سواء . وهي تلبى حاجة الأفراد وهم يعملون فرادى ، وحاجتهم وهم منتظمون في الجماعة ، فلا تصادم رغباتهم الفطرية السليمة ، ولا تكبت طاقاتهم الطبيعية القويمة . وفي الوقت ذاته تضع الحدود للنشاط الشاذ الذي يضرهم أفراداً وجماعات ؛ وتعطى الجماعة ممثلة في الدولة كل السلطات التي تنفع بها الخير للجميع من نشاط الجميع وإنتاجهم ، وتكف بها الخير للجميع أيضاً كل نشاط فاحش يجانب الفطرة السوية المستقيمة . وفيما مضى أمثلة فيها الكفاية على هذه الظاهرة المميزة لطبيعة الشريعة الإسلامية .

وأخيراً فلا مجال كذلك لشعور الفرد بالحاجة إلى التمرد لتحقيق شخصيته

والشعور بالاستعلاء تجاه فرد في المجتمع أو هيئة أو جماعة ، إلا أن يكون ذلك الاستعلاء المضحك على الله !

إن شعور الفرد بأن قوة أعلى من قوته ومن قوة البشر جميعاً هي التي تشرع له ، لكفيل بأن يشعره بالعزة أكثر مما يشعره بالاستعباد ، وبأن يحقق له شخصيته أكثر مما يكتبه ويضغطه .. وهي مزية لا تتوافر في نظام قط إلا النظام الإسلامي ، الذي يحمل الجميع سواسية أمام التشريع ، لا باللفظ المموه ولكن بالحقيقة الواقعة .

إن الإسلام وحده هو الذي يجعل طاعة الحاكم مستمدة من قيامه على الشريعة التي لم يضعها هو بل وضعها إله البشر جميعاً ، وموقوتة بتنفيذ الحاكم لهذه الشريعة واتباعها ، لا بتنفيذ قوانين يتدعها تخالف عن شريعة الله العليا . فإذا اختلف الحاكم والمحكومون في حكم أو قضية ، فليس الطريق هو الرضوخ لإملاء الحاكم ، إنما الطريق أن يرجع الحاكم والمحكوم إلى الله والرسول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم في شئ ، فردوه إلى الله والرسول ^(١) »

وذلك منتهى ما يتطلبه الفرد لتحقيق شخصيته ، ما دامت فطرته سوية لم تشذ أو تنحرف . ولهذا السكثرة الغالبة يشرع الإسلام ، فيحقق في محيطها الأمن والسلام :

سلام العالم

في ضوء فكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان التي
أجلناها خطوطها الرئيسية في صدر هذا الكتاب ؛ ثم في ظل طبيعة السلام
في الإسلام ، التي سبق الحديث هناك . . نستطيع أن نتبين خطة الإسلام
في تحقيق السلام الدولي بين بني الإنسان . . ولقد سرنا معه في خطواته إليها
من سلام الضمير ، إلى سلام البيت ، إلى سلام المجتمع ، حتى أسلمتنا هذه
الخطوات إلى سلام العالم ، في تناسق واطراد .

إن الفكرة الكلية للإسلام عن الحياة تهدينا إلى أنه يعد الحياة وحدة .
وحدة من ناحية الزمن ، متماسكة الحلقات ، متدرجة الخطوات ، متضامنة الإحيال ،
متعاقبة الأطوار . ووحدة من ناحية الفطرة ، متماسكة النوازع والأشواق ،
متمترجة المادة والروح ، قابلة للارتفاع إذا حسن توجيهها وتركيتها ، مستعدة
للهبوط إذا ساء التوجيه والقيادة : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها
قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دساها »^(١)

وفكرة السلام في الإسلام التي تقوم على تلك الفكرة الكلية الأولى .
تهدينا إلى أن الإسلام يعد البشرية كلها بشرية واحدة ، ويعد الدين كله ديناً
واحداً ، ويعد المؤمنين كلهم أمة واحدة ، ويعد الإسلام هو الطور الأخير
والنهائي من أطوار هذا الدين الواحد ؛ فهو يصدق ما تقدمه ، ويهيمن

عليه لأنه الطور النهائي منه : « وأزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ ، مصدقاً لما بين يديه من الكتابِ ومهيِّميناً عليه ^(١) » .

والمسلمون إذن مكلفون تبعات إنسانية تجاه هذه البشرية بحكم وصايتهم هذه عليها ووصاية كتابهم على كتبها . هم مكلفون أن يحققوا في الأرض ذلك السلام الذي أسلفنا خطواته في الضمير والبيت والمجتمع ؛ وعرفنا أسسه ومبادئه من العدل والمساواة والحرية ، وضمانات الحياة القانونية والمعيشية ، ومنع البغى وإزالة الظلم ، وتحقيق التوازن الاجتماعي ، والتكافل والتعاون ، وإزالة أسباب الفرقة والخصام والنزاع بين الأفراد وبين الجماعات ، وسدِّ الدرائع التي تدعو إلى قيام الطبقات وتميزها وصراعها . . إلى آخر ما سبق بيانه في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد جاءت هذه الأمة وسطاً ، عادلاً بين طرفي التفريط والإفراط في كل اتجاهات الحياة ، كما ترسم لها حدود هذا الدين ومبادئه التي عرضنا طرفاً منها في مجال السلام ؛ فكان عليها أن تنهض بهذا العبء ، وألا تنكسر عنه ، لأنه نصيبها المقدّر لها في الحياة من خالق الحياة : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ^(٢) » . . « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ^(٣) » .

الجهاد في سبيل الله

ولكن هذا الدين — مع هذا كله — لم يعتسف الأمور ، ولم يكلف المسلمين إكراه غيرهم على اعتناق دينهم ، بسبب أنه الطور الأوفى والأكمل من أطوار دين الله الواحد في الأرض : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ^(١) » . . . إنما كلفهم أولاً حماية المؤمنين حتى لا يُفْتَنُوا عن دينهم ، وكف القوة عنهم بالقوة ، لأن الدعوة بالحسنى هنا لا تجدى ، وليس هذا مكانها . وكلفهم ثانياً تحقيق العدالة الكبرى في الأرض ، وتمتع البشرية بهذه العدالة في كل ميادينها ، سواء كانت خاصة بالأفراد في المجتمع ، أو بالجماعات في الأمة ، أو بالأُمم التي تعيش على هذه الأرض وتتألف منها البشرية الكبرى . وهذا التكليف يقتضى المسلمين أن يكافحوا الظلم والبغي حيث كان ، ولو كان ظلم الفرد لنفسه ، أو ظلم الجماعة لنفسها ، أو ظلم الدولة لرعائها . . . فحيثما كان على وجه هذه الأرض ظلم فالأمة المسالمة مكلفة أن تسلكه وتزيل أسبابه : لا تملك الأرض ، وتستولى على المرافق ، وتستذل الرقاب ، بل لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كل غرض . وهذا هو ما يطلق عليه في الإسلام « الجهاد في سبيل الله » أى الجهاد لتحقيق كلمة الله العليا ، لا بإكراه الناس ليكونوا مسلمين ، بل بإناحة الفرصة لهم ليخلصوا من الظلم والذل ، ويمسكوا حرية الاختيار دون تدخل من القوة الطاغية الضالة ، ويستمتعوا بالعدل المطلق الذى يريده لهم الله : « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ^(٢) » . وذلك مفرق الطريق بين الجهاد في سبيل الله والجهاد في سبيل الشهوات .

ولقد تضمنت مبادئ الإسلام الأساسية ثورة حقيقية كاملة ، تعد أكبر انقلاب عرفته البشرية إلى هذه اللحظة . ثورة على الظلم بكل صنفه وألوانه ، وفي كل ميادين ومجالاته ؛ وثورة على النظم والحكومات والأوضاع التي تسند هذا الظلم وتستبقية لحساب فرد على جماعة في صورة حاكم أو مستغل ، أو لحساب طبقة على طبقة في صورة إقطاعيين ورأسماليين ، أو لحساب دولة على دولة في صورة محتلين ومستعمرين .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد ، وأن تقاومه طبقات ، وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمتص الإسلام بثورته الكاملة الشاملة في وجه هذه المقاومة . ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذه الثورة وتحقيق كلمة الله في الأرض ، واستنقاذ البشرية أفراداً وجماعات من جور الأشخاص والحكومات والنظم والأوضاع . لكي يقيم السلام العالمي الأكبر على أسسه الأصيلة ، لا في العالم الدولي فحسب ، ولكن في داخل هذه الدول كذلك ، فلا يسكت على وقوع الظلم في داخل دولة من الدول ليشتري السلم معها بأى ثمن . إن الفكرة العالمية هي الفكرة التي تسيطر على الإسلام ، فليس همهم أن يشتري السلم الكاذبة مع دولة من الدول ، بأن يدع هذه الدولة تظلم رعاياها ، وتحرمهم العدل القضائي والعدل الاجتماعي . فهؤلاء الرعايا الذين تحكمهم تلك الدولة الظالمة ، أيّاً كان دينها وأيّاً كان شكلها ، هم ناس من البشر ، والأمة المسلمة مكلفة أن ترفع عنهم الظلم ، وتمتعهم بالعدل . ومن ثم ينصرف الجهاد إلى تحقيق فكرة الانقلاب العالمي ، لا إلى الحكم والسيطرة والغنم ، وبهذا الانقلاب يحقق السلام بكل صنفه : سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع ثم ... سلام الإنسانية في النهاية . سلامها في ظلال العدل الشامل

الذى يفاله الإنسان ، مجرد أنه إنسان ، لأنه من حقه كإنسان : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين^(١) » .. « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى^(٢) » .

وهذه الخطوط تصور طبيعة السلام العالمى فى الإسلام : فليس هو سلاما بالمعنى الضيق أى تجنب القتال بأى ثمن ، وأياً كانت الأسس التى يقوم عليها ترك القتال . إن هنالك سلباً رخيصة دنية ، هى السلم التى تقام على حساب البشرية ، وعلى حساب المبادئ العليا للإنسانية كما أرادها الله فى الأرض لبني الإنسان ، وهذه هى السلم التى يحذر الله المسلمين منها : « ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم^(٣) » ، الأعلون لأنكم تمثلون الفكرة العليا للحياة ، التى لا بد لها من النصر حين يؤمن الناس بها لأنها من كلمة الله : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم^(٤) » .. « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله تقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور^(٥) » .

وإذن فالإسلام فى جهاد دائم لا ينقطع أبداً لتحقيق كلمة الله فى الأرض . أى لتحقيق النظام الصالح الذى يقوم على مبادئه العليا فى عالم الفرد وعالم الجماعة وعالم البشرية ؛ وهو مكلف ألا يهادن قوة ظالمة على وجه هذه الأرض ، سواء تمثلت هذه القوة فى صورة فرد يتجبر على الأفراد والجماعات ، أو فى صورة طبقة تستغل الطبقات ، أو فى صورة دولة تستغل الدول والشعوب . إنها كلها صورة

(١) النساء ١٣٥ (٢) المائدة ٨ (٣) محمد ٣٥

(٤) محمد ٧ (٥) الحج ٤٠ — ٤١

واحدة في عرف الإسلام ، صورة منافية لمبادئه الأساسية ؛ وعليه أن يجاهدها ما استطاع ؛ وعليه ألا يهادنها إلا ريثما يتجمع لكفاحها ؛ وعليه بطبيعة الحال ألا يعاونها ولا يقف في صفها بحال من الأحوال : « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »^(١) .

أ إن قوة الإسلام قوة محررة تنطلق في الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال . وهي لا تنظر في هذا المجال لجنس ولا لون ولا لغة ولا دين ، الناس لديها سواء ، كلهم ناس ؛ أما فكرة القومية بمعناها الضيق الذي تفهمه أوروبا ، والذي انتقلت إلينا عدواه في حدوده الضيقة المزيلة السخيفة ؛ فلا يعترف بها الإسلام على هذا المعنى الذي يخالف فكرته الكلية عن وحدة البشرية .

حيثما كان الظلم فالإسلام منتدب لرفعه ودفعه . وقع هذا الظلم على المسلمين أو على الذميين — أى الذين أعطاهم الإسلام ذمته ليحميهم — أو على سواهم ممن لا يربطهم بالمسلمين عهد ولا اتفاق . وحيثما واجه الإسلام الفرد الظالم أو الطبقة الظالمة أو الدولة الظالمة ، واجههم على أنهم جماعة من البشر تظلم جماعة من البشر ، لا على أنهم سود أو حر أو صفر أو بيض ، ولا على أنهم مسيحيون أو يهود أو مشركون . واجههم بقدر ما يعطون من تحقيق كلمة الله في الأرض ، ومن تحقيق السلام الحقيقي لبني الإنسان . وكان عنيفاً على كل بحسب نصيبه من هذا التعطيل ، وبحسب عتوه وضلاله وفساده . . فإذا استسلمت هذه القوة الطاغية أو اهتدت ، فالأفراد بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من عقيدة ماداموا يؤمنون بالله .

ومن هذه النقطة ينشأ الاختلاف بين موقف الإسلام من الكفار والمشركون ، وموقفه من أهل الكتاب . إن الكفار والمشركون ينكرون أساس العقيدة في الله ، فينكرون بالتالي كل قواعد الخلق والمعاني الأدبية ، بما فيها قواعد العدالة الإلهية . ومن ثم فهم بوجودهم حرب على كلمة الله التي يحققها الإسلام . ومع هذا فإن الإسلام لا يقاتلهم إلا أن يحاربوا دعوته ويقاوموا فكرته ويؤذوا أهله ؛ بل إنه لا يمنع أن تقوم العلاقات بينهم وبين المسلمين على البر والقسط إذا هم لم يحاربوا الإسلام والمسلمين : « لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ، أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (١) .

فأما أهل الكتاب فهم إما دول مستقلة ، وإما جماعات تعيش بين المسلمين . . فإن كانت الأولى فإما أن تقوم بينهم وبين المسلمين معاهدات ومواثيق ، وإما ألا تقوم . فإن كانت تربطهم بالمسلمين مواثيق فهم على مواثيقهم لا تخلف ولا تنقض ، على نحو ما سنفصل في الفقرة التالية ، وإن لم يكن هناك ميثاق ، فهم داخلون في النصوص السابقة : إن كفوا أذا هم عن المسلمين وعن الدعوة الإسلامية فلهم البر والقسط ، وإن لم يكفوا كان على الإسلام أن يخيرهم بين ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال . فأما الإسلام فلا أنه الطور الأخير من أطوار الدين الخالد ؛ ولأنه الهدى للبشرية جميعاً ؛ ولأنه الناموس الذي يحقق العدالة الإنسانية الشاملة للجميع .

وأما الجزية فلأنها دليل الكف عن المقاومة ، وتحقيق حرية الدعوة ، وإزالة القوة المادية التي تصد الناس عنها .

وأما القتال فلأنه في هذه الحالة هو الرد الباقي على مقاومة كلمة الله عن إصرار وعناد ، وحرمان البشرية من الاستمتاع بما تحمله لها هذه الكلمة من نور ومن عدل ومن سلام شامل كامل لبنى الإنسان .

ويختلف الأمر في حالة الجماعات التي تعيش بين المسلمين — وهم الذميون — أي الذين أعطاهم الإسلام ذمته وعهده لحمايتهم ورعايتهم — وهؤلاء لهم ما لنا وعليهم ما علينا بنص الإسلام الصريح . فأما ما يؤخذ منهم من الجزية ، فهو مقابل ما يؤدي المسلمون من الزكاة ، مساهمة في نفقات الدولة التي تحميهم كما تحمي رعاياها المسلمين سواء ، والتي توفر لهم العدل المطلق بلا تفرقة ولا تمييز ، وتحقق لهم ضماناتهم وتأميناتهم ، في حالة المرض والعجز والشيخوخة . ولم يشأ الإسلام أن يجبرهم على أداء الزكاة ، لأن الزكاة عبادة إسلامية خاصة ، وحرية الاعتقاد التي يكفلها الإسلام للأفراد تمنعه أن يكره الذميين على أداء عبادة إسلامية ، لهذا يأخذ منهم الضريبة تحت عنوان « الجزية » لا تحت عنوان « الزكاة » مراعاة لهذا المبدأ الإسلامي العام : « لا إكراه في الدين » .

فإذا شاءوا هم برضاهم واختيارهم أن يؤديوا ضريبة الزكاة كمسلمين بدل الجزية كان لهم ذلك عن رضى واختيار . وقد اختارت قبيلة بنى تغلب على عهد عمر أن تؤدي الزكاة لا الجزية ، فأدتها على هذا الأساس ^(١) .

(١) كتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف « سيرت . و . أرنولد » وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله ص ٤٩

لذلك لا يكون هناك أعجب ولا أخبث من إثارة الشكوك والمخاوف حول الأقليات المسيحية وغير المسيحية في الأمة الإسلامية إذا حكم الإسلام . إنها دعاية خبيثة مغرضة آئمة يتولاها أحياناً جماعة من حقي هذه الأقليات أو خبيثاتها الذين تنفل نفوسهم حقناً وغلاً للإسلام ، لالشيء إلا لأنه الإسلام . ويتولاها أحياناً أفراد يحملون أسماء مسلمة ؛ وهم فتات آدمى مهلهل يحاول أن يستند إلى أوكار الدعاية الخبيثة ؛ لأنها تملك لهم أعراضاً صغيرة من النفع المادى أو من الشهرة والدعاية لأشخاصهم الهزيلة المدخولة ؛ ولأنهم يجدون بذلك عند الصليبيين من المبشرين وبعض المستشرقين صدراً رحباً ، بما يؤدون للصليبية الخارجية من خدمات ، لا يؤديها الرجل المسلم ولا الرجل الشريف على أية حال . وهم لتدريتهم يجدون شارباً في الأوساط الصليبية ، لا لأنهم شيء ذو قيمة ، ولكن لأنهم لحسن الحظ نادرون . فقلما ترتكس الفطرة البشرية في هذه الحماة المدنية ، حتى في عصور الانحطاط والانحلال ! وندرتهم الظاهرة حتى في جيلنا هذا مصداق هذا الكلام .

روح السماحة الإنسانية

إن في روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه ؛ وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها ولا لأتباع دين معين ، إنما هي للإنسان بوصفه إنساناً . وعندما يؤدي الإسلام واجبه في هداية البشرية وينهض بتكاليفه في دفع الظلم والفساد عنها ، لا تبقى له سلطة تعسفية على فرد أو قوم ، ولا تبقى في صدره إحنة على دين أو جنس .

وهي روح تمكن له من إقرار السلام في الأرض ، ومن تأليف الأجناس والألوان والأديان ، ومن إشاعة السباحة والود والتراحم بين بني البشر ، ومن تنقية جو الحياة من سموم التحاسد الفردي ، والتطاحن الطبقي ، والتناحر العنصري ، والتعصب الديني ؛ كما تمكنه من كف الحروب والمجازر التي تقوم على تلك الأسباب ، وعلى الرغبة في الفتح والتوسع لمجرد الاستغلال المادي أو العظمة الكاذبة .

وفي مبادئ الإسلام العامة ما يصور هذه الروح الإنسانية الخالصة :
 « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ^(١) » ..
 « وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ . وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ^(٢) » .. « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ^(٣) » .
 وعن جابر بن عبد الله قال : « مرت بنا جنازة فقام النبي وقتنا . فقلنا يا رسول الله : إنها جنازة يهودي . فقال : « أَوَلَيْستَ نَفْسًا ؟ إِذَا رَأَيْتَ الْجَنَازَةَ فَقُومُوا ^(٤) » .

وبهذه السباحة الإنسانية الخالصة سار خلفاء الرسول وسار المسلمون في الغالب ، فلم تند إلا فلتات عابرة من التعصب في غير واجب ديني ، وفي غير ظلم يدفع أو فساد يرفع ؛ وقد وقعت على أيدي أناس لا يعدون ممثلين للإسلام ولا فاهمين لمبادئه العليا وروحه الإنسانية .

✠ رأى عمر شيخاً ضرياً يسأل على باب ، فسأل ، فعلم أنه يهودي ، فقال له :

(٢) العنكبوت ٤٥

(٤) البخاري

(١) الحجرات ١٣

(٣) الجاثية ١٤

ما أُلْجَأَكَ إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده ،
وزهب به إلى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال :
« انظر هذا وضر بآءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شيبته ، ثم نخزّه عندا لهم .
إنما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ . وهذا من مساكين أهل الكتاب » .

ولما سافر إلى دمشق من بأرض قوم مجذّمين من النصارى ، فأمر
أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت .

ولقد كانت هذه الروح السمحة هي التي اجتذبت الناس إلى الإسلام ،
ويسرت له أن ينساح في الأرض بتلك السرعة العجيبة الخارقة ، فقد كان
الناس يفرون إليه من الاضطهادات الدينية والعنصرية السائدة حينذاك ، وهم
ينتظرون لديه الساحة والعدالة والمساواة .

جاء في كتاب « الدعوة إلى الإسلام » تأليف (سيرت . و . أرنولد)
وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه في ص ٥٣ وما بعدها :

« وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية
اليعقوبي أن يحدّد فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ما كتبه
إخوانه في الدين ، وأن يرى أصبع الله في الفتوح العربية حتى بعد أن خبرت
الكنايس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون ، وقد كتب يقول بعد أن
سرد اضطهادات هرقل :

[وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجهوت ، والذي
يبدّل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضع ، لما رأى شرور
الروم الذين لجأوا إلى القوة ففهموا كفائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممكلكاتهم

وأُتزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفي الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حصص الكبرى وكنيسة حران) ومع ذلك فلم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحقنهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام .]

« ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في خل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : (يا معشر المسلمين . أنتم أحب إلينا من الرُّوم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا . ولكمهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا) . وغلق أهل حصص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعتسفهم . » وهكذا كانت حالة الشعور في بلاد الشام ، إبان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣ ، ٦٣٩ م ، والتي طرد فيها العرب جيش الرُّوم من هذه الولاية تدريجياً . ولما ضربت دمشق المثل في عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧ م وأمنت بذلك السلب والنهب ، كما ضمنت شروطاً أخرى ملائمة ، لم تتوان سائر مدن الشام في أن تنسج على منوالها ، فأبرمت حصص ومنبج (Hieropolis) وبعض المدن الأخرى معاهدات ، قد أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب ،

بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة . وإن خوف الرُّوم من أن يكرههم الامبراطور على اتباع مذهبه ، قد جعل الوعد الذى قطعه المسلمون على أنفسهم بالحرية الدينية ، أحبَّ إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرُّومانية ، وبأية حكومة مسيحية . ولم تؤكد المخاوف الأولى التى أثارها نزول جيش فاتح فى بلادهم تنبذ حتى أعقبها تحمُّس قوى لمصلحة العرب الفاتحين .

« أما ولايات الدولة البيزنطية ، التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ماشاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرَّض لهم أحد ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعاً لإثارة أى احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، أو إثارة أى تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة ، حتى لا يؤذى ذلك الشعور الإسلامى . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح — الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع — من هذه العهود التى أعطاهها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها ، وتعهَّدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الإذعان ودفع الجزية .

« وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات . وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن ، فهى على جانب من الأهمية ، من حيث أنها تمثل الرواية التاريخية ، التى أخذ بها المؤرِّخون المسلمون فى القرن الثانى الهجرى — وهى رواية كان

من العسير أن تستقر دعائهما ، لو أن هناك دليلاً يقوم على إثبات عكسها — ولا بأس من أن نورد هنا الشروط التي قيل : إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سلم له بيت المقدس : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين ، أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسميما وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم) .

« وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين ، وأربعة من الطبقة الوسطى ، وثلاثة من الفقراء . وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق وقيل : إنه بينما كان في كنيسة القيامة ، وقد حان وقت الصلاة ، طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك ، ولكنه بعد أن فكر اعتذر وهو يقول : إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد أنه محل لعبادة المسلمين .

« ومما يتفق مع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى . ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجري عليهم القوت . وهو لا ينسى الذميين (وهم أصحاب الديانات الأخرى الداخلون في حماية المسلمين) حتى في أخرى وصاياه إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي ، فقال : (وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ، أن يوفى لهم بعهدهم ، ولا يكلفوا إلا طاقتهم) » .

وبمثل هذا التسامح ، وهذه العدالة ، استطاع الإسلام في الماضي ،

ويستطيع في المستقبل ، أن يحقق السلام العالمي في الأرض ، لأنه يمنح الناس ما لا تمنحه لهم عقيدة أخرى ولا نظام ؛ ويسلّسهم جميعاً في قافلة إنسانية واحدة ، يحسون في ظلها بالأمن والسلام .

يقول مستر جرب في كتابه : « حيثما يكون الإسلام » :

« ولكن الإسلام ما زال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواء يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة ، أساسها المساواة . فالجامعة الإسلامية العظمى في إفريقية والهند وإندونيسيا . بل تلك الجامعة الصغيرة في الصين . وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التي تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات . فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » .

ولقد رأيت في هذا المجال أن أقتطف من أقوال رجلين أوروبيين مسيحيين . لأن شهادتهما للإسلام قديماً وحديثاً بالساحة المطلقة ، والعدالة التامة في معاملة المخالفين له في العقيدة ، شهادة فوق مستوى الشبهات ، ولا يمكن أن تكون صادرة عن حماسة دينية للإسلام ، ولا عن مبالغة في كشف زياه !

✱ والساحة الإنسانية ، عنصر هام لإقرار السلام ، تفقده كل الحضارات التي تظلل العالم اليوم ، هذا العالم الذي تميزه العصبية الدينية ، والعصبية العنصرية ، والعصبية المذهبية ، ويقف على شفا جرف هار بسبب تلك

العصبيات الذميمة ، التي تنقصها روح الساحة الإنسانية ، وروح العدالة الحقيقية ، والتي تنطلق وفي إثرها الأحقاد والحزانات ، والمطامع الاقتصادية وغير الاقتصادية ، فتحيل الحياة البشرية جحيماً في الحرب وجحيماً في السلم ؛ وتنشر فيه المجاعات والخواف ؛ وتقف الأمم بعضها من بعض موقف الخذر الدائم والقلق الدائم ؛ وتثقل على أعصاب الناس فتصيبهم بالضغط العصبي والدموى ؛ وتدعهم في تربص بأنفسهم وسواهم ، وفي ذعر لا أمن فيه . وحقد لا سلام فيه ، وظلمة لا بصيص فيها . . ومع هذا كله ، تجد تلك الحضارات البائسة معجبين ومدافعين . وهى تسوم البشرية شقاء بعد شقاء ، وحراباً بعد حرب ، وبلاء بعد بلاء . لماذا ؟ لأنها تملك تسخير الحديد والنار والكهرباء والبخار ، وتملك صنع القنبلة الذرية والقنبلة الإيدروجينية ، ولا تملك ذرة واحدة من ذرات الحبة ، ولا عنصراً واحداً من عناصر الساحة ، ولا طاقة واحدة من طاقات الإنسانية !

إلا إنه المسخ الذى يصيب الروح البشرية فى عصر الظلام الروحى والانتكاس . وما هنالك من بلسم يمسّ هذه الروح فيشفئها ، وما هنالك من شعاع يضيء ظلماتها وخوافيها ، إلا أن يقود الإسلام البشرية مرة أخرى ، فيردها إلى الساحة الإنسانية ، ويحيل كشوفها وعلومها أداً رحمة وحضارة وسلام .

العنصر الأخلاقى فى المعاملات

أهل أبرز ما يميز الروح الإسلامية هو سيطرة العنصر الأخلاقى على العلاقات الدولية فى السلم والحرب سواء ؛ والتجرد من الأنانية الصغيرة المحدودة التى تعبد « الدولة » وتعدّها غاية مقدسة فوق المثل والمبادئ والأخلاق . .

هذه الروح التي تسود علاقات الدول في سائر النظم التي عرقتها الأرض — عدا النظام الإسلامي — فتنفس جو الحياة البشرية ، وتحيلها كحياة الذئاب في الغابة ، لا عهد فيها ولا ميثاق ، ولا مجال فيها لغير الغدر والنفاق . ولقد شهدت البشرية في الحقبة التي سيطرت فيها أوربا مثلاً من عهود الغابة ، وصوراً من شرائع الذئاب . شرائع الغدر والنفاق والخسة ، ونقض العهود وخيانة الوعود ، وتمزيق الاتفاقيات ؛ ووصف المعاهدات بأنها قصاصات من الورق . كما شهدت من وحشية الحرب ما تجبل الوحوش أن تأتيه . وكان آخر هذه الوحشية السافرة قبيلتنا هيروشيا وناجازاكي .

وستشهد البشرية في مستقبلها القريب من ألوان الخيانة والغدر ، ومن صنوف الوحشية والبربرية ما يتفق مع روح هذه الحضارة المادية الكافرة ، التي لا تؤمن بدين ولا خلق ، ولا تقيد نفسها بمبدأ ولا ضمير ، وما يتمشى مع الفكرة المادية الغليظة التي تسيطر على هذه الحضارة ، فتنتفي من الحياة كل عنصر غير المصلحة المباشرة والعنصرية الثمينة .

وستظل فكرة الإنسانية الواحدة ، بعيدة عن التحقق في ظل هذه الحضارة ، الحقيرة الروح المتعفنة الضمير ، مهما نودى فيها بفكرة الوحدة العالمية ، لأن هذه الوحدة لا بد أن تقوم على عقيدة أدبية ، تكيف الصلات المادية ، وتسير الآلات والأجهزة لبناء الحياة لا تحطيم الحياة .

وستظل الأطماع الدولية تتحكم ، فتتيح للسان والقادة ، كل منكر وكل إجرام وكل وحشية ، لأنها موجهة إلى دولة أخرى . وما دامت فكرة قداسة الدولة — لا قداسة الإنسانية — هي التي تتحكم ، فلن يكون هنالك رادع

عن ارتكاب أخط الجرائم في حقوق الآخرين ، واعتبار المجرم بطلا عظيماً ،
والغادر سياسياً بارعاً ، على نحو ما شهدت البشرية في تاريخها كله ، فيما عدا
الفترة التي سيطر فيها الإسلام ، فكانت قبساً من النور في غياهب الظلام .
إن الإسلام قوة تحريرية — كما أسلفنا — تنطلق في الأرض لتحرر
البشر من أغلالهم ، وتمنحهم الحرية والنور والكرامة . دون نظر إلى عصبية
عنصرية أو عصبية دينية . فإذا اصطدمت هذه القوة بقوى الشر والطغيان
والاستعباد كاحت هذه القوى الشريرة وحدها ، مبرأة من كل غاية استعمارية
ومن كل غاية اقتصادية . « فقد بعث محمد هادياً ولم يبعث جانياً » كما قال
عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، لعامله الذي أرسل إليه يشكو نقص الجزية
لأن الناس آثروا الإسلام !

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه في التحرير والتطهير لا ينسى أن
مصلحة البشرية العليا هي هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية
ولا مصلحة المسلمين الخاصة ؛ فلا مجال إذن لفكرة قداسة الدولة التي تبيح
الحظور ، وتبرر المنكر ، وتصف الغدر والنفاق والكذب بالبراعة السياسية ،
أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية .

إن العهد مقدس ، مهما يفوت على المسلمين من مصالح قريية ، ومطامح
مرغوبة ؛ وإن الشرف مرعى مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب ؛
وإن الشعور الإنساني ملحوظ ، مهما تكن قسوة المعركة ، وحرارة الضرب
والحرب . وقد كسب الإسلام بذلك كله ولم يخسر في النهاية . كسب الأرواح
والقلوب ، وكسب توطيد المبادئ العليا التي جاء لإقرارها في الأرض ؛ وعوض

في النهاية ما فقدته بالمحافظة على العنصر الأخلاقي في السلم والحرب من خسائر جزئية ومتاعب وقتية ؛ وشهد في فترة قصيرة كيف جاء نصر الله والفتح ، وكيف دخل الناس في دين الله أفواجا .

لقد جعل الإسلام قانونه في العالم الدولي ، بل العالم الإنساني ، هو الوفاء بالعهد : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ^(١) » . « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة ^(٢) » .

فهذه الحجة التي تتخذها « الدولة » في أوربا لتبرير نقض العهود والمواثيق . حجة مصلحة الدولة ، ينص عليها القرآن هنا : « أن تكون أمة هي أربى من أمة » وينص على أن هذه الرغبة لا تبرر نقض العهد ؛ وينهى المسلمين عن الاستسلام لها ؛ ويشبه ناقض العهد ذلك التشبيه المزرى « كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » .

وقد عظم الله الوفاء بالعهد والموفين به ، بقدر ما حقر الذين ينتقضون عهودهم ويخفرون ذمتهم ، حتى نبذهم من ساحة الإنسانية وزجهم في حظيرة الحيوانية : « إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يؤفون بعهد الله ولا ينتقضون الميثاق ^(٣) » .. « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به

أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسَدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ^(١) » ..
« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ^(٢) » .

حتى المشركون الذين ناهضوا الإسلام والمسلمين ، وآذوهم كما لم يؤذهم
أحد من قبل ومن بعد إلا يوم أن صار الأمر للصليبية في الأندلس .. حتى هؤلاء
الذين يقول الله عنهم للمسلمين : « وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً ^(٣) » حتى هؤلاء يحتم الله على المسلمين أن يفوا لهم بعهودهم ، في الوقت
الذي أعلن حكمه الأخير فيهم ، وهو أنهم لن ينالوا من الله ورسوله بعد ذلك
عهداً ولا ميثاقاً ؛ ولكن ماسبق إبرامه فهو مرعى لا يبدأ بنقضه المسلمون أبداً :
« وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . فَإِنْ تَبَيَّنَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا شَيْئاً ، وَلَمْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ .
إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ^(٤) » .

وحق المسلمون حين يستنصرون المسلمين على الأعداء فإن هذا لا يبيح
لإخوانهم نقض العهد الذي سبق له الأداء « وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ
النَّصْرُ . إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ^(٥) » وهي قمة في الوفاء بالعهد تقصر
دونها الكلمات .

ولم تكن هذه مثالا نظرية ومبادئ، مثالية، إنما كانت سلوكا واقعيا في حياة المسلمين وفي علاقاتهم الدولية جميعا. والأمثلة على ذلك كثيرة من الواقع التاريخي في الإسلام. نجتزئ منها ببعضها في هذا المقام.

قال حذيفة بن اليمان: ما منعتني أن أشهد بدرًا إلا أنني خرجت أنا وأبو الحسيل، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمداً. فقلنا ما نريده وما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله فأخبرناه الخبر فقل: «انصرفا». نفى بهدهم ونستعين الله عليهم».

ولقد غدر بعض المشركين بصلح الحديبية وكان العهد فيه أن من جاء قريشا من أتباع محمد قبلته، ومن جاء محمداً من أتباع قريش لم يقبله، فظل النبي متمسكا بعهد مع الذين لم ينقضوه، ولم يقبل تابعا قرشيا جاءه في أثناء قيامه. قال أبو رافع مولى رسول الله: «بعثتني قريش إلى النبي، فلما رأيت النبي وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول لا أرجع إليهم، قال: «إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرود، ولكن أرجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع».

وحينما كان سهيل بن عمرو يفاوض النبي في صلح الحديبية — وبينما كان يكتب عهد الهدنة وقبل توقيعه — جاءه أبو جندل بن سهل يرسف في الأغلال، وقد فرّ من الكفار. فلما رأى سهيل ابنه قام وأخذ بتلايبه وقال: يا محمد. لقد لجت القضية بيني وبينك. فقال محمد: صدقت. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوتني في ديني؟ فلم يغن

عنه ذلك شيئاً ، وردّه رسول الله وفقاً للشروط التي اتفق عليها ، وإن كان بعد لم يوقعها .

وكتب أبو عبيدة رضى الله عنه ، وهو قائد لجيش عمر رضى الله عنه وهو الخليفة : « إن عبداً آمنَ أهلَ بلادٍ بالعراق . وسأله رأيه . فكتب إليه عمر : إن اللهَ عَظَّمَ الوفاءَ ، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » .

وأحب أن أقف قليلاً عند هذا الحادث لبيان ظاهرتين ذواتى شأن : فأما الظاهرة الأولى ، فهي تصديق عمر لوعده صدر من عبد مسلم ؛ وأمره لقائده بتنفيذه . فهو من جانب يحقق تلك المساواة المطلقة بين المسلمين ويمنح الفرد — أياً كان شأنه — ذلك الاحترام الوافى . الاحترام لكلمته وعهده بحيث يسرى على سائر المسلمين ، تصديقاً لقول الرسول : « المسلمون متمكفأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم^(١) » . وهو من جانب تربية للرجال بإبراز التبعة الكبرى الملقاة على كل فرد ، فكلمته كلمة الأمة الإسلامية ، فعليه إذن أن يتخرج فى إطلاقها ، ويدقق فى إعطائها ، لأن الأمة كلها مأخوذة بها محاسبة عليها .

وأما الظاهرة الثانية ، فهي قولة عمر : « فلا تكونون أوفياء حتى تفوا » وما فيها من معنى بارع يصور فكرة الإسلام وطابعه .. إنه لا وجود للكلمة إلا بتحقيق مدلولها فى عالم الواقع . وإلا بالتطابق بين القولة المفضولة والسلوك المحسوس .. وهكذا كان الإسلام فى كل مبادئه العليا . إنها ليست مثلاً

الوعظ ، وليست ألقاظاً للبريق . إنما هي نظم للتنفيذ ، وشرائع للتكليف ،
وواقع من الواقع في الأرض ، وإن كانت هدفاً أعلى من وحي السماء .

ثم يمضي الإسلام في طريقه العلوى مع الشرف والكرامة والأخلاق .
فلا يبيح الغدر حتى وهو يخشى خيانة الآخرين . فلا بد أن يعالهم بالعداوة ،
ويجاهرهم بالحرب ، ويتبذ إليهم عهدهم في وضح النهار ؛ ولا يبيتهم بالغدر ،
وهم منه على عهد وميثاق . فإن جنحوا للسلم فهي لهم بعد ذلك : « وَإِنَّمَا تَخَافَنَ
مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . وَلَا يُحْسِنُ
الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ، وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَقْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ، وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ
بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ^(١) » .

وقد يقع اللبس عند البعض عند سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
« الحرب خدعة » ^(٢) . ولكنه لا لبس في الحقيقة ؛ فالخدعة في الحرب تجوز
وهي حرب لا سلم . فحين تعلن الحرب فالجبال هنا هو مجال الخطط الحربية
والعدو يعلم ويأخذ حذره ، ويدبر أمره . فالخدعة حينئذ مهارة حربية وبراعة
عسكرية في ميدان الحرب لا في ميدان السلام .

والقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورى بغيرها لبياعته
الخصوم الذين أخذوا جانب الخصومة الصريحة ، لا ليغدر بالمعاهدين الآمنين ،
ويباعثهم من حيث لا يحتسبون .

وهكذا يقف الإسلام القوي موقف الشرف الحازم . فلا غدر ولا ضعف ،
ولانت ولا استخذاء . إنما هي عزة الأقوياء ، وشرف الكرام ، وعهد الأوفياء .
كذلك تبدو هذه الظاهرة في تأمين الكافر المستجير ؛ لأنه في هذه الحالة
لا قوة له تؤذي ، فن الشبهة ألا يؤذى ؛ لأن الإسلام لا يبغي فناء مخالفه ،
إنما يبغي هدايتهم إلى الطريق ؛ وهو لا يعجل إليهم بالأذى إلا أن يبدأوا
هم فيعادوه ويقاوموه : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى
يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه » ^(١) فليست هي الإجارة فقط ، إنما هي الحماية
كذلك حتى يبلغ محله في أمان .

وإنه لأفق آخر من آفاق السمو لا يبلغه إلا الإسلام .
وكذلك يتضمن القانون الإسلامي الدولي تأمين المبعوثين والمفاوضين
وخصاتهم ، فلا يمسون بسوء في ظرف من الظروف .

جاء ابن النواجة وابن آثال رسولا مسيلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله ؟ قالوا : نشهد أن مسيلة رسول الله !
فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « آمنت بالله ورسوله ! لو كنت قاتلا
رسولا لقتلتكما » .

فأما إن تكن الحرب ، فهي إذن حرب التحريض البشرية . الحرب على

النظم الإقطاعية والاستبدادية ، وعبودية البشر لناس من البشر ، وعلى الطغيان والظلم والشطط ، وعلى الخرافات والأوهام والأساطير . حرب التحرير بكل معانيها وفي كل ميادينها . الحرب الخالصة من الهوى ومن الدوافع الاقتصادية والعنصرية والتحكيمية . الحرب التي يشرف الإنسانية أن تخوضها لأنها تقرير للمصفاة الإنسانية وللحقوق الإنسانية وللمبادئ الإنسانية .

إنها ليست الحرب التي تديرها رؤوس الأموال المجرمة لتربح من وراء الصناعات الجهنمية، التي تقتات بالأرواح والأجسام ، وتبتلع الحضارات والمدنيات، وتحطم النفوس والأخلاق . أو تديرها الشركات الاحتكارية لحماية مصالحها في البلاد المستعمرة ، واستغلال خاماتها من القوى الطبيعية والقوى البشرية ، وفتح أسواقها للمنتجات والمصنوعات . أو تديرها البيوت المالية الربوية ، لتحقيق أرباحها الفاحشة ، وضمان المكسب الحرام ، واستغلال الفرص ، والصيد في الماء العكر .

إنها ليست الحرب التي تريد لتضرب بسور فولاذي على الشعوب ، دون المعرفة والعلم والحضارة كي يبقأ أبناء البلاد المحتلة عمياً صماً بكماً ، يساقون سوق المشاية إلى الذبح في ذل وفي جهل وفي استسلام .

إنها ليست الحرب التي تخوضها الحضارة الغربية القدرة ضد الإنسانية ، جرياً وراء الربح المادي ، والاستعباد العنصري ، والتعصب الديني . كتلك الحروب التي عرفها العالم الغربي في كل تاريخه الملوأ الطويل .

إنما هي الحرب التي تحمل معها المساواة والعدالة والكرامة لكل كائن بشري على سطح هذه الأرض ، وتحققها في عالم الواقع وعالم المثال .. تحققها

في التشريع وفي التنفيذ .. تحققها للأسود والأبيض ، والمسلم والمُعاهد .. تحققها في صورة واحدة وبأداة واحدة ، وفي مستوى واحد للجميع .

ولقد حرم الإسلام الربا والاحتكار ، وحرم الربح الفاحش ، وحرم الاستغلال الآثم . وبذلك أبطل أسباب الحروب الاستعمارية المادية الأولى ، وقتلها في مهدها قبل أن تفرخ ..

فشركات الاحتكار ، وبيوت المال ، هي التي تجرّ في أذيالها الاستعمار لتحمي مصالح المحتكرين والمرابين والمستغلين . وقد شهدت مصر مصرع استقلالها على أيدي البيوت المادية والربا المنكر الأثم ، وعلى أيدي الشركات الاستغالية التي تريد قطن مصر للانكشير ، وسوق مصر لصناعاتها ، وقناة السويس لمستعمرات شركة الهند الانجليزية وغيرها فيما وراء البحار . وكذلك شهد كل بلد بلاه الله بالاحتلال الغربي مصرع استقلاله على أيدي تلك البيوت وتلك الشركات .. وهذا ما فطن إليه الإسلام من أول الأمر ، فقم أظفار الربا والاحتكار والاستغلال ، وغلق أبواب الحرب كلها فيما عدا باب واحد : باب الجهاد في سبيل الله ، لغير ما غرض هابط من أغراض الحياة ..

فإذا كانت الحرب في هذا الوجه وحده ، فهي إذن حرب إنسانية لا يقصد فيها إلى التشكيل والتقتيل والتدمير ؛ وما يجوز أن تمس الأبرياء والضعفاء ؛ ولا أن تتجاوز غايتها الأولى من إزالة قوى الشر والظلم ، أو إخضاعها لتأمين الإنسانية شرها . وليست هناك من نية للإبادة أو التشفي أو الاستذلال .

روى رباح بن ربيعة : أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها ، فرّ رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة ، فوقف عليها ثم

قال : « ما كانت هذه لتقاتل ! » ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لأحدهم :
« الحق بخالد بن الوليد ، فلا يقتلن ذرية ولا عسيماً (أجيراً) ولا امرأة » ^(١)
ورفع إليه صلى الله عليه وسلم بعد إحدى الوقعات أن صبية قتلتوا بين
الصفوف ، فخرن حزناً شديداً . فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله وهم
صبية للمشركين ؟ فغضب النبي وقال ما معناه : إن هؤلاء خير منكم . إنهم
على الفطرة . أولستم أبناء المشركين ؟ فأياكم وقتل الأولاد . إياكم وقتل
الأولاد ^(١)

وروى مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : « ستجدون
قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن
امراً ولا صبياً ولا كبيراً هريماً »

وفي وصية له لجنده : « ولا تقطن شجراً ، ولا تخربن عامراً »
وقال زيد بن وهب : أتانا كتابُ عمر رضي الله عنه وفيه : « لا تغلوا ،
ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً . واتقوا الله في الفلاحين »
ومن وصاياه : « لا تقتلوا هريماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا
التقى الزحفان وعند شن الغارات »

(١) روى ابن عمر رضي الله عنهما وأخرجه الستة إلا النسائي قال : « وجدت امرأة
مقتولة في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن قتل النساء والصبيان » . وروى بريدة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ويمن منه من المسلمين
خيراً ، ثم قال له : اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغدروا
ولا تقتلوا ولا تقتلوا وليداً » أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي .

ولم تكن هذه تعاليم نظرية تذوب عند الواقع وتتوارى . . إنما كانت سلوكاً عملياً في الحروب الإسلامية قديماً وحديثاً ، لم يشذ عنها إلا النادر الذي لا يقاس عليه ، ولا يبطل القاعدة التي جعلها الإسلام غايته وحققتها في واقعه .

فإذا نحن ألقينا من هذه القمة الشاخبة التي يقف عليها الإسلام في سلمه وحر به ، نظرة على المستنقع الآسن الذي تلغ فيه الحضارة الغربية سلباً وحرماً أدركنا بُعد الشقة بين نظام ينزله الله للبشر ، ونظام يضعه الناس للناس . وأدركنا كم خسرت البشرية يوم تنكرت لنظام الله ، وهي تتعثر في تكبر مضحك وفي تعالم مضحك ، تريد أن تقول : إنها تريد لنفسها خيراً مما أراد الله ، وإنها تملك لنفسها خيراً مما أعطاه الله !

وستظل هذه البشرية تظلم في طريق كلها منحدرات وآكام ؛ وتلغ في كل مستنقع آسن من صنع الحضارة السكافرة المغرورة الضالة عن الله . . إلا أن يتسلم الإسلام الزمام ، فيقود البشرية الحائرة إلى مثابة العدل والنظام والسلام .

والآن

الآن .. بعد استعراض فكرة السلام في الإسلام ، والإلمام بفكرة الإسلام الكلية عن الحياة .. الآن بعد معرفة المدلول الكامل لكلمة السلام في الإسلام . هذا المدلول الذي يشمل إقرار السلام في الأرض على أسس من العدالة المطلقة ، ومن الخير الشامل ، تحقيقاً لكلمة الله . وإلا فالجهاد الدائم لتحقيق هذه الكلمة ، والكفاح الدائم لدفع البغي والعدوان ، والصراع الدائم مع الفساد والشر والطغيان .

الآن ما طريقنا نحن الأمة المسلمة ؟ ما موقفنا من الصراع العالمي الذي يدور حولنا ؟ ما واجبنا تجاه الحياة ، وتجاه الإنسانية ، وتجاه أنفسنا ؟

لقد قلت في مطالع هذا الكتاب : إن عقيدتنا الإسلامية تملك أن تسعفنا بحلول عملية لمواجهة مشكلاتنا الداخلية والخارجية . وقد تبين من هذا الاستعراض أن هذه العقيدة لا تفصل بين المشكلات الداخلية والمشكلات الخارجية ، فهي تربط بينها في حياة الإنسانية ، وتربط بينها في وسائل العلاج . ولقد شهدنا روابط كثيرة بين مسألة السلام العالمي في المحيط الدولي ، وبين حياة الفرد في ضميره ، وحياته في الأسرة ، وحياته في الجماعة . وشهدنا روابط كثيرة بين مثيرات النزاع والصراع في الميدان الدولي وكثير من المشاعر والنظم والاقتصاديات في داخل الجماعة .

فالآن ما طريقنا ؟ كيف نواجه مسألة السلام العالمي بعقيدتنا الإسلامية ؟ وكيف نتصرف في المجال الدولي طبقاً لهذه العقيدة ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أحب أن نواجه الواقع العملي في محيط الكتل التي تتصارع اليوم في المجال الدولي . أحب أن نستعرض المبادئ التي يقوم عليها هذا الصراع ، والعوامل التي تدفعه وتؤثر فيه .

فعلى ضوء هذه المواجهة يمكن أن نعرف رأى الإسلام في تلك المبادئ ، ورأيه في هذه الدوافع ؛ وأن نعرف كذلك موقفنا الذي يجب أن نتخذه ؛ ونذكر إن كان الموقف الذي تمليه علينا عقيدتنا هو ذات الموقف الذي يحقق مصالحنا ؟ أم إن هنالك تعارضاً بين واجبنا لمقيدتنا ، وواجبنا لمصالحنا ، إن كان هنالك مثل هذا التعارض !

فإذا اتضح أن الحلول التي تملها علينا عقيدتنا الإسلامية ، هي ذات الحلول التي تملها علينا مصالحنا ، بل هي ذات الحلول التي تملها مصلحة الإنسانية العليا وخير البشرية جميعاً . . فإننا نسير إذن في الطريق على هدى ، ونسير فيها بقوة ، ونسير فيها باطمئنان .

وفي هذه الحالة يصبح المتاف بتدحية المقيدة الإسلامية عن مجرى حياتنا السياسية أو الاجتماعية لغواً لا يستند إلى دليل ، وهذا لا يستحق الاحترام . فلنأخذ على بركة الله في استعراض الواقع البشرى الذي نواجهه ، لنعرف فيه رأى المصلحة الإنسانية والمصلحة القومية ، ورأى الإسلام .

على حافة الهاوية

ناقوس الحرب يدق . ها هوذا يقرع سمع البشرية المنكودة الطالع . ولقد سمعته من قبل في أمريكا حتى قبل قيام الحرب الكورية . وكل من عاش في أمريكا في خلال العامين الأخيرين كان يدرك بوضوح أن أمريكا

ستحارب . كل شيء كان ينطق بهذه الحقيقة أو يوحى ؛ فقد كانت التعبئة العامة لكل قوى الشعب وموارده قائمة على قدم وساق ؛ وما كان يغطي هذه التعبئة إلا ستار رقيق من الدبلوماسية ، قد يحجب الحقائق في خارج أمريكا أما في داخلها فقد كانت أبرز من أن يحجبها ذلك الستار .

وكل من كان يتتبع الصحافة الأمريكية ، وأجهزة الدعاية الأخرى في الإذاعة والسينما — بل في داخل الجامعات والمعاهد — كان يدرك بوضوح أن هذه أمة تستعد للحرب — للحرب القريبة — وأنها تعبىء الرأي العام ، وتعدده إعداداً ثانياً كاملاً شاملاً ؛ وأنها إن لا تسكن هي الحماقة المؤكدة في إنفاق كل هذه الجهود ، فإنها الحرب المؤكدة إذن ، وعن قريب !

إن أمريكا تريد أن تحارب ؛ ولو طاولتها أوروبا لما صبرت عن الحرب حتى حادث كورية ؛ فلقد كانت تريد لها حرباً كاملة منذ أزمة برلين المعروفة ؛ ولكن أوروبا المحطمة كانت أعجز من أن تلبى رغبة أمريكا الملحة . وهى ما تزال تلحق جراحها ، وتعالج مآسيها ، فضلاً على أن للشيوعية فيها قوى مذخورة ، تنهياً للحظة المنظورة ؛ وإغراء الدولار كان يملك أن يصنع كل شيء في أوروبا ، إلا أن يدفعها إلى حرب عالمية ثالثة . . . ولهذا وحده صبرت أمريكا .

إن رؤوس الأموال الأمريكية فى حاجة ملحة إلى حرب جديدة . هذه هى المسألة . إن الفتوحات العالمية التى أسرع خطاها فى الحرب الماضية ، والتجارب التى أفادت بها الصناعة من تعبئة الموارد فى أيام هذه الحرب ، قدهيات للصناعة الأمريكية فرصاً جديدة لمضاعفة الإنتاج ، فى الوقت الذى أصبحت مسألة التصريف مسألة عسيرة .

ومع أن الأسواق كانت بعد الحرب خاوية ، وفي حاجة ماسة إلى الإنتاج المدنى ، وخالية من المنافسة الأوربية . إلا أن القدرة على الشراء كانت ضعيفة ، وبخاصة في أوربا المحطمة . ومعنى هذا هو الكساد بالقياس إلى الإنتاج الأمريكى ؛ ومعنى الكساد هو الخسارة المؤكدة لرؤوس الأموال الأمريكية ..

ومن هنا كان « مشروع مارشال » ، وكانت لهذا المشروع غايات أساسية ثلاثة :

الغاية الأولى : كانت هى تصريف الإنتاج الأمريكى الفائض ، دون أن تدفع الدول المنتفعة به ثمنه نقداً بالدولار الأمريكى ، فقد كانت الحكومة الأمريكية تفتح الاعتمادات للدول الأوربية ، لتنفقها هذه الدول فى شراء الإنتاج الأمريكى فى الغالب . وحقيقة إن رؤوس الأموال الأمريكية كانت تتحمل ضرائب عالية لتمكين الحكومة من تنفيذ مشروع مارشال ؛ ولكنها مع هذه الضرائب العالية كانت تحقق ربحاً لا شك فيه بتنفيذ المشروع ، وتتقى الخسارة التى تنشأ من الكساد !

والغاية الثانية : كانت هى اتقاء حالة التبطل بين عمال أمريكا ، ومايتبع التبطل من هزات اجتماعية ، بعد وقف الإنتاج الحربى الذى كان يستغرق هذه الأيدى العاملة ؛ وكان هذا يقتضى إيجاد متصرف للإنتاج المدنى يسمح بتشغيل المصانع إلى الحد الأقصى ، فكان مشروع مارشال وتغذية دول أوربا بالآلات ، هو الوسيلة لتحقيق هذا الهدف ، الذى ينطوى بدوره على تحقيق نوع من الربح لرؤوس الأموال الأمريكية !

والغاية الثالثة : كانت هي تعمير أوروبا ، وإعادة سير الحياة فيها — وبخاصة حياة العمل — تحقيقاً للنشاط الاقتصادي العالمي كله من ناحية ، ومقاومة للشيوعية في أوساط المتعطلين من ناحية أخرى .. وكان مشروع مارشال يعاون على تحقيق هذه الغاية .

ومن هنا يعد « مارشال » صاحب هذا المشروع — في نظر الأمريكيان — أحد رجال التاريخ الأمريكيين . وقد عدته مجلة « لوك » Look أحد « العشرين الذين صاغوا القرن العشرين » لا في أمريكا وحدها ، بل في العالم على الإطلاق .

ولكن مشروع مارشال لم يكن يمكن امتداده إلى الأبد ؛ فطباع الأشياء تقتضى وقوفه عند حد معين ، عند ما تصل الأسواق الأوربية إلى درجة التشبع من جهة ، وعند ما تصل أداة الإنتاج الأوربية إلى درجة الإنتاج الكامل من جهة أخرى . وقد استعادت أوروبا أو أوشكت أن تستعيد قدرتها الكاملة على الإنتاج ؛ وعادت إلى الموقف الذى أصبح فيه مصدره لا مستهلكه ، ومزاحة للإنتاج الأمريكى ، لا فى الأسواق الأوربية وحدها ، بل كذلك فى أسواق العالم الأخرى .

عند ذلك لعبت بريطانيا لعبتها الماكرة التى استغلت فيها سذاجة العقلية الأمريكية ، وقلة خبرتها الدبلوماسية . تلك هى لعبة تخفيض قيمة الجنيه الاسترليني بالنسبة لقيمة الدولار . فلقد تركت أمريكا تقدم عليها تحقيقاً للقيمة الواقعية للدولار فى الأسواق لا القيمة الرسمية ؛ وتظاهرت بالدعم منها والإشفاق ، وهى تسكن عن حليقتها نية أخرى ! تلك النية التى لم تتبينها أمريكا إلا أخيراً !!

أما النتيجة فكانت هي إغلاق الأسواق في وجه البضائع الأمريكية التي أصبحت أسعارها مرتفعة بالقياس إلى العملة في منطقة الاسترليني . احتفاظاً بهذه الأسواق للبضائع الإنجليزية ، التي لم تتأثر أسعارها بتخفيض قيمة الجنيه الاسترليني في منطقة الاسترليني . أما في سواها فقد صارت أرخص بكثير من مثيلها الأمريكي !

وعند ما تنبّهت أمريكا أخيراً إلى هذه الخديعة ، أخذت ترد عليها باستنزاف الخامات من الأسواق العالمية ، مستعينة بقدرتها الفائقة على الشراء ، وبقوة نقدها في الأسواق العالمية ؛ ذلك كي ترفع سعر هذه الخامات في وجه الصناعة البريطانية ؛ وتجعلها أقل قدرة على المنافسة ، لأن ارتفاع ثمن الخامات يجبر الصناعة الإنجليزية على رفع أسعار المنتجات ؛ وبذلك يقع شيء من التعادل بين الأسعار الأمريكية والأسعار الإنجليزية . وقد ارتفع سعر خامات الصوف مثلاً خمسمائة في المائة ، لأن الصوف صناعة إنجليزية رئيسية . وكذلك ارتفعت أسعار معظم الخامات التي تقوم على أساسها الصناعة البريطانية بتأثير هذه الخطة الأمريكية التي جاءت رداً على الخدعة الإنجليزية ! وكان هذا سبباً رئيسياً في موجة الغلاء التي عمت العالم أخيراً ، بجانب الأسباب الطبيعية الناشئة من الاستعداد للحرب العالمية !

إلا أن هذا الإجراء الأمريكي لم يكن ليزيد على أنه إجراء وقائي ، لمواجهة هجوم معين ؛ ولكن الحالة العامة في الأسواق بالقياس إلى استقبال الإنتاج الأمريكي لم تتأثر تأثيراً يذكر . وقد صادف ذلك صدمة كاملة باكتساح الشيوعية لذلك القسم الهام من أسواق العالم وهو الصين ، الصين ذات الخمسمائة

مليون من السكان . ربع سكان الأرض على وجه التقريب . وحقيقة إن الصين لم تكن سوقاً أمريكية رئيسية ، ولكن كان المرجو بعد هزيمة اليابان أن تصبح كذلك . فلما اكتسحتها الشيوعية أغلق هذا المنفذ ، وأحست رؤوس الأموال الأمريكية بشيء من الاختناق ، كما أحست الدوائر الاجتماعية بالخطر من انتشار البطالة ، وقد بلغت الأيدي المتعطلة قبيل الحرب الكورية نحو خمسة ملايين (نقصت إلى ثلاثة ملايين بعد ابتداء هذه الحرب) .

ومن هنا لم يكن بد لأمريكا أن تحارب . وإذا كانت الحرب الكورية قد اجتذبت نحو مليونين من الأيدي المتعطلة ، فإنها لا تصلح وحدها علاجاً للموقف ؛ ولا بد من حرب شاملة تجتذب جميع الأيدي العاملة من جهة وتضمن لرؤوس الأموال أرباحاً كاملة من جهة أخرى ! فالحرب بالقياس إلى أمريكا اليوم هي ضرورة حياة قومية ، فضلاً على الرغبة القوية في وقف تيار الشيوعية العالمية بطبيعة الحال . هذا التيار الزاحف ، الذي يغمر في كل يوم أرضاً جديدة ، ويقفل في كل يوم سوقاً جديدة .

وإذا كانت أوربا تتلصك في الاستجابة لأمريكا ، فتؤجل بهذا التلصك موعد نشوب الحرب المطلوبة ؛ فإنها لن تتلصك طويلاً ، لأنها ستجد نفسها قريباً مدفوعة إلى الحرب بنفس الأسباب التي تدفع أمريكا . وفي اليوم الذي يبلغ الإنتاج الأوربي الرأسمالي ذروته ، سيواجه الموقف ذاته بالنسبة إلى الأسواق . وما دامت الشيوعية تزحف ، وهي لابد أن تزحف ، تمل لها تلك الأحوال الاجتماعية السيئة في معظم بلاد العالم ، وفوارق الطبقات السحيقة التي تثير الحنق في الصدور ؛ ويفذيها ذلك الجشع الغبي الذي تستمسك به

الرأسمالية والإقطاعية ؛ وبخاصة في مناطق الشرق . . مادامت الشيوعية تزحف ، فهي تغلق في كل يوم سوقاً جديدة في وجه الإنتاج الرأسمالي في أوربا وأمريكا . . وهنا تلتقي مصلحة رؤوس الأموال هنا وهناك في محاولة وقف هذا التيار ، واسترداد الأسواق بقوة السلاح . أو على الأقل بالاستهلاك الحربي ، وإنتاج الأسلحة والذخائر وأدوات الموت والدمار . تلك التي تضمن للمصانع أن تعمل ، ولرؤوس الأموال أن تربح ، وللملايين أن تموت !

فوقف أوربا الحاضر ، وتلك كؤوها في الاستجابة لهاتف الحرب ، ومحاولتها تهدئة الأعصاب الأمريكية الشائرة . . كل أولئك عوامل وقتية للسلام ، وليست ضمانات حقيقية لهذه البشرية المنكودة الطالع ، التي تدفع بها إلى الجزرة مصالح رؤوس الأموال ومطامعها ، وما يمكن وراء هذه المصالح والمطامع من مادية فكرية ، لا تقيم وزناً لأى عامل أدبي أو روحى ، على الرغم مما تملأ به دعايتها من تلويح باسم المبادئ الأدبية ، والأهداف الإنسانية .

في مفرق الطرق

وتقف الكتلة الشيوعية اليوم في جانب ، وفي الجانب الآخر تقف الكتلة الرأسمالية ؛ وتحاول كلتاهما أن تستدرج البقية الباقية من العالم إليها ؛ وأن تستخدم في الجزرة موارد هذه البقية . موارد البشرية والاقتصادية والجغرافية جميعاً .

فأما الكتلة الرأسمالية بقيادة أمريكا فتستخدم عدة وسائل لهذه الغاية : تستخدم أولاً عامل التخويف للرأسماليين في كل أنحاء العالم ، وبخاصة في العالم العربى الإقطاعى ، من الشيوعية التي تزحف يوماً بعد يوم ؛ وتناشدهم

المصلحة المشتركة بين الاستعمار والرأسمالية ، وتلجأ في ذلك إلى المحالفة الطبيعية بين الرأسمالية المحلية والرأسمالية العالمية .

وتستخدم ثانياً الضغط السياسى والاقتصادى ، وأحياناً الضغط المسلح ، فى البلاد الواقعة فى ربة الاستعمار المباشر وغير المباشر ، كما هو الشأن فى مجموعة البلاد العربية .

وتستخدم ثالثاً إغراء الدولار تحت عناوات كثيرة . منها ذلك العنوان الجديد الذى خلف مشروع مارشال ، وهو عنوان « النقطة الرابعة » فى مشروع ترومان !

وهى على العموم تخاطب الطبقات الحاكمة والمستغلة ، ولا تعتمد كثيراً على الجماهير ، لأن مصالح هذه الطبقات معلقة بانتصار الكتلة الرأسمالية . وتبذل جهوداً جبارة فى هذا السبيل ، وإن كانت لا تريد فى الوقت ذاته أن تلقى بالاً إلى مطالب الشعوب القومية ، لفرط ثقها بالطبقات الحاكمة والمستغلة ويقينها أن هذه الطبقات لن تعادى الاستعمار عداء حقيقياً فى سبيل مطالب شعوبها القومية . وسيظل موقفها كذلك إلى أن تتولى هذه الشعوب قضاياها بأنفسها ؛ وتبرهن على أنها لا تستنيم اشعوزات المشعوذين من زعمائها وكبرائها ؛ وأنها معترمة أن تسبب للاستعمار وللجبهة الرأسمالية متاعب حقيقية ؛ وتعرض مصالح هذه الجبهة وجيوشها لأخطار حقيقية فى حالة نشوب الحرب . . . وعندئذ فقط قد تفكر الكتلة الرأسمالية الاستعمارية فى الإنصات قليلاً لصيحات هذه الشعوب !

إن هذه الكتلة تريد أن تضمنا إليها لتستطيع أن تجند من العرب وحدهم مليوناً كما ورد فى بعض البرقيات ؛ ثم لتتخذ من بترولنا ومواردنا الغذائية ،

ومواقفنا الاستراتيجية عُدَّة للنصر في المذبحة العالمية المنتظرة ؛ وبخاصة بعد تلك الصفحة القاسية التي أصابتها في إيران وما ترال تترنح منها .

ولقد قيل في الحرب الماضية : إن الحارين كانوا يطهرون حقول الأغنام أحياناً في الصحراء الغربية بإطلاق الجمل والبغال فيها ؛ فإذا عزت عليهم الجمل والبغال أطلقوا زنوج المستعمرات الإفريقية ، يطهرون بأشلائهم المتطايرة حقول الأغنام !

وسواء صح هذا أم لم يصح فإن وظيفة جُند المستعمرات كانت دائماً هي تطهير حقول الحرب وتمهيداً للسادة البيض ؛ واحتمال الصدمة الأولى في المعارك الحامية .

وفي هذه الحرب الكورية الحديثة تلقى الألاى التركى الذى ذهب إلى هناك نفس المصير ، وقام بنفس الدور . ولن يختلف مصير الملايون من الخراف العربية التى سيقدمها السادة هنا لحلفائهم الطبيعيين عن مصير جُند المستعمرات والألاى التركى ، في الحرب القادمة لو قُدِّر لها أن تثور !

وأما الكتلة الشيوعية فتخاطب الجماهير السكادحة . تخاطب الملايين التى تنتج كل شئ وتجميع . تخاطب المعدات الخاوية ، والأجساد العارية . تخاطب الضحايا التى طال عليها الإهمال ، وطال عليها الحرمان ؛ وأصبحت تستجيب لسكل من يُلوِّح لها بالرغيف ، وكل من يعدها الخلاص من القرف الفاجر الداعر الذى تزاوله على مرأى منها ومسمع فئة قليلة العدد ، فاحشة الموارد ، بينما الشظف السكافر السافر يحيل هذه الملايين السكادحة خطأماً ، ثم يفتت ذلك الحطام !

وهي تستخدم كذلك أخطاء الاستعمار وجرائمه ، ورغبة الشعوب المستعبدة في إلقاء هذا النير عن أعناقها ، والاستمتاع بالحرية الطبيعية التي يفتسبها الاستعمار الفاجر الآثم ، بمعاونة الخونة من المستغلين في هذه البلاد . كما تستفيد من مقاومة الصليبية الغربية والرأسمالية المحلية لكل دعوة إسلامية حقيقية ، وكل عدالة اجتماعية إسلامية .

وعلى أية حال فإن كلتا الكتلتين تحاول أن تلقى في روع البقية الباقية من العالم ، أن ليس للبشرية كلها إلا أن تسلك طريقاً من طريقين ، وأن تنضم إلى كتلة من الكتلتين ؛ وأنه لا مفر من أن تنتصر الجبهة الغربية ، أو أن تنتصر الجبهة الشرقية ليسود السلام ، وتنعّم البشرية بالأمن ، وتصل الإنسانية إلى استقرار ؛ وأن انضمام البقية الباقية من العالم هو السبيل الوحيد لتغليب إحدى القوتين على الأخرى بصفة حاسمة ، لإنهاء حالة القلق والتأرجح والاضطراب .

فأين وجه الحق في هذه الدعوى ، وأين وجه المصلحة القومية والمصلحة الإنسانية في هذا الادعاء ؟

إنه ليس من مصلحتنا نحن ولا من مصلحة الإنسانية أن تغلب الآن إحدى الكتلتين على الأخرى ، وتمحوها من الوجود محوًّا ؛ فنحن في دور استكمال وجودنا الطبيعي في الحياة ، واستنقاذ مصالحنا المفضوبة بأيدي المستعمرين ، ليس من مصلحتنا أن تهزم الجبهة الشرقية هزيمة نهائية ، ولا من مصلحة الإنسانية كذلك . وإن وجود هذه الكتلة بهذه القوة في هذه الفترة لهو إحدى الضمانات لنا لنستخلص هذه الحقوق يوماً بعد يوم ؛ كما أنه الضمانة المؤقتة للبشرية ألا تسيطر عليها قوى الاستعمار الجائر الفاشم الظالم .

وإذا كان فيما من يحسن الظن بأمريكا ، ويظن أن سيطرتها ستحد من شرة الاستعمار ، فليُنظر كيف تقف أمريكا في صف هذا الاستعمار ، وكيف تمده بقوة الحديد والنار عند الاقتضاء . على أنى أعيذ البشرية أن يستبد بها الصلف الأمريكي السخيف ، الذى قد لا يقاس إليه الصلف البريطانى ذاته فى أرض المستعمرات . إن عداوة الأمريكى للملونين عداوة كريهة بغيضة ، وإن احتقاره للملونين لتهون إلى جانبه تعاليم النازية ؛ وإن صلف الرجل الأبيض فى أمريكا ليفوق كل ما كانت تتصوره المتلرية . وويل للبشرية يوم يقعها سوء الطامع فى ربة هذا الصلف الأمريكانى ، بلا قوة فى الأرض تخشى ويعمل لها حساب .

كذلك نحن فى حاجة مؤقتة إلى وجود القوة الشيوعية فى الأرض ، لتخويف الطغاة والمستغلين ، واسترداد حقوق الجماهير المسلوقة ، فى ظل هذا التخويف ! وإنما لندين لوجود هذه القوة بالشىء الكثير من مشروعات العدالة الاجتماعية الضئيلة التى تحاولها السلطات فى هذه البلاد ، ولولا الخوف من الشيوعية ما تم منها كثير ولا قليل !

ولكن هذا كله ليس معناه أنه من الخير لنا وللإنسانية أن ينتصر المعسكر الشرقى انتصاراً حاسماً كاملاً ؛ وأن يتحقق ذلك الحلم الشيوعى الواهم ويدين للشيوعية الجميع .

إن هذا المعسكر لا يبغي لنا الخير ، ولا يطيق أن تكون لنا فيه كرامة ، إنه يريدنا جنوداً له أو عبيداً ، لا أن يكون لنا وجود ذاتى وكيان محترم . ولقد دلتنا تجربة فلسطين على حقيقة ما تضمرة لنا روسيا الشيوعية . لقد وقفت منا

موقف العداء في مجلس الأمن ، كما أن أسلحة الكتلة الشيوعية لليهود هي التي وقفت في وجوهنا بفلسطين ؛ ذلك أن روسيا كرهت أن يكون للأمة العربية كيان ، وأشفقت أن تستحيل الكتلة العربية قوة حقيقية تستعص على السيادة الشيوعية في المستقبل ؛ فآثرت أن تتبخر كل دعاواها في حقوق الشعوب الطبيعية ؛ وأن تخسر أساساً من أسس دعايتها ضد الاستعمار ؛ وأن تسمح بقيام دولة إسرائيل على أساس الدين وحده — وهو أنكر ما تنكره الشيوعية — آثرت ذلك كله على تقوية الكتلة العربية ؛ وضربتها تلك الضربة القاسية المنكرة ، لتقوم إسرائيل في جنبها كالشوكة ، تمزق وحدتها الجغرافية ، وتفصل حدودها المتصلة ، وتحرمها التماسك والقوة والشخصية . إن روسيا عدوة وحدتنا وقوتنا ووجودنا الذاتي . وكل ما تلوكه ألسنة دعايتها هو مجرد أسلحة في صراعها مع الكتلة الغربية ، كدعاية هذه الكتلة ضدها سواء بسواء .

إنه لا بأس في نظر الشيوعية الروسية أن نأبى على الكتلة الغربية استخدام مواردنا في الحرب ضدها . أما أن يكون لنا كيان ذاتي ، وقوة شخصية ، ووجود قومي فلا ! وإن دعايتها في بلادنا ليفزعون ، كما لو كانت قد لدغتهم أفعى ، إذا سمعوا دعوة التكتل الذي يوجد لنا شخصية قومية . إنهم لا يريدوننا إلا ذيولاً ذليلة تنعق بالشيوعية ، وتؤدي لها التسهيلات الممكنة في أرضنا حين يستعر القتال ! وهو وضع تأباه علمنا ومصالحنا ، بل يآباه مجرد الشعور بأننا ناس ، لا سواهم ولا أشياء !

والشيوعية قد يكون لها اليوم لآلاء في عيون الكادحين المحرومين ، الذين تصاغ دماؤهم يواقيت للنحور والصدر ، ويقطر عرقهم كدوساً للسكاري

والخمورين .. ولكن تصور البشرية كلها نسخاً مصبوبة في قالب الشيوعية الواحد ، لا يسمح لفكر واحد فيها أن يشذ ، ولا لقلب واحد فيها أن ينبض بخالجة لا يرضاها ستالين .. هذا التصوّر وحده تقشعر منه الأبدان ، ويشق من تحقّقه كل إحساس آدمي سليم !

على أن طبيعة الحياة تأبى الانتصار الكامل الحاسم لقوّة واحدة من هاتين القوتين الماديتين ، اللتين لا يفرق بين طبيعتهما إلا اختلاف المصالح والمطامع ؛ وإن الهزيمة لتنبت في زحمة النصر ، كما أن النصر يثبت في ركام الهزيمة . وها نحن أولاء نرى أن الحلفاء الذين بذلوا ما بذلوا ليقهروا ألمانيا واليابان ينحنون اليوم على الحطام والأشلاء ، ليستنقذوا منها المارد الذي صرعوه بالأمس ، كي يستعينوا به على المارد الجديد .. نفس الذي فعلوه بعد الحرب العالمية الأولى .. ولئن انتصروا غداً على الجبهة الشرقية ، فليواجهن ألمانيا من جديد ؛ ولئن انتصرت الشيوعية فلينبئن لها عدوها من ذات نفسها . من الضغط والسكت اللذين لا تطيقهما البشرية طويلاً . وقد بدأت يوغوسلافيا حتى قبل المعركة ، وستبعتها التشقّق في المعسكر الشيوعي ، لنفس الأسباب ، أو بسبب الجحود والتوقف الناشئين من صبّ البشرية كلها في قالب واحد ، تسيطر عليه فكرة واحدة ، لا تسمح بأى تطوّر بعد مرحلة الشيوعية ، التي تعدّ ختاماً للحلم الماركسي لا تتعدّاه ! وإنها للعة لا تصاب بها الإنسانية إلا وقد أريد بها شر عظيم .

إنه لمن السذاجة أن نتصوّر أننا نستطيع أن نحظى ثمرة السلام العالمى من وراء اصطدام هاتين الكتلتين الضخمتين في حرب حاسمة أخيرة . ولقد كان الطيبون الأبرياء في العالم يتخيّلون هذه الثمرة الحلوة يانعة بعد كل من الحربين

الماضيتين ؛ فلم تطالع شجرة الحرب إلا ثمرات مرة ، تجرّعها هؤلاء الطيبون الأبرياء ؛ وكان الجنى الحلو كله للطغاة والمستغلين ، من الشرقيين أو الغربيين .

طريق الخلاص

إن طريق الخلاص للبشرية المنكودة الطالع لن يكون هو الانضمام إلى هذا المعسكر أو ذاك ، ليسحق أحدهما الآخر سحقاً ، ويخلو له وجه العالم ، يسيطر عليه وحده ويسيره كما يريد .

إن المعركة في صميمها ستدور في أرض غير أرض السكتلتين . ستدور في تركيا وإيران والعراق وسورية ، ومصر والشمال الإفريقي . وفي باكستان وأفغانستان . وفي منابع البترول العربية في عبادان والظهران .. إنها ستدمر مواردنا نحن ، وتحطم حياتنا نحن ، وتدع أرضنا بلقعا خرابا يبابا . وسواء علينا انتصرت هذه أم انتصرت تلك ، فسنخرج نحن من المعركة فتاتا وحطاما . لا كما خرجت أوروبا من الحروب الماضية ، ولكن كما لم تخرج أمة من حرب قط . وإذا كانت هيروشما قد ذهبت مثلاً ، بقنبلة ذرية صغيرة ، فسنكون نحن تلك القنابل الصغيرة ، لتجارب القنابل الذرية ، والقنابل الهيدروجينية ، وغاز الموت الزّاحف ، وأشعة الموت السحرية ، وحرب الميكروبات الطائشة ، وسائر ما يتمخض عنه الذهن الكافر في دنيا الضمير الغربي الملوث .

إن دعاة السكتلة الغربية هنا يمتنوننا حل قضايانا المعلقة مع الاستعمار ، إذا نحن انضممنا إلى معسكر الرأسمالية الذي يدعونه معسكر الديمقراطية ! كأننا لم ننضم إلى هذا المعسكر مرتين متواليتين ، وكأننا لم نلدغ من ذلك

الجحر مرتين . وأنا أعرف السبب في ذلك الموقف الغريب المريب ..
إنه تلك المحالفة الطبيعية بين الرأسمالية المحلية والاستعمار الغربى . إنه المصلحة
المشتركة بين المحتلين والمستغلين . إن الطغاة والمستغلين هنا لا يطيقون أن
ينزلوا عن القليل مما مردوا عليه من طغيان واستغلال ؛ وهم يدركون جيداً
أن الاستعمار هو سندهم الطبيعى ، وأنه هو الذى خلقهم وأنشأهم ، ومنحهم
النفوذ والثراء . فهو الذى كافأ الخونة الذين خدعوا جيش عرابى ، وساعدوا
جيش الاحتلال فى مصر ؛ ووهب لهم الضياع والأموال ، حتى لقد أصبحوا
اليوم يدعون أبناء البيوتات ، ويلقبون بالأسر الكريمة ! والاستعمار يصنع
هذا فى كل مكان ، وأقرب الأمثلة الأخيرة ذلك « الجلاوى » الخائن فى
مراكش ، الذى لا يستحي أن يفخر بمصرع نجله فى حملة فرنسية على الوطنيين
المسلمين فى البلاد !

وماذا على السادة أن تصبح الجماهير وقوداً للحرب الجديدة ؟ إن الحروب
تضاعف أموالهم ؛ وتؤدى عنهم الديون التى تنقل أراضيهم وشركاتهم ،
إن كانوا قد أسرفوا على أنفسهم بخسائر القمار ، أو بالمتاع الفاجر الداعر الذى
يذهب بالأموال . وإنهم ليطمثون فى ظل الأحكام العرفية التى تصاحب الحرب
إلى حماية أشخاصهم من الفضائح ، وإلى تكيم الأفواه وتحطيم الأقلام ،
وإلى البطش بالأحرار الذين يوقظون الجماهير لحقوق الجماهير . وإنهم لنفى
مأمن من ويلات الحرب بأرواحهم ، كما هم فى مأمن منها بأموالهم ؛
فضريبة الدم لا يؤديها فى بلاد الشرق إلا الفقراء ! ولقد رأينا فى معارك
فلسطين كيف كان الضباط من « أولاد الذوات » يجنبون ويلات الحرب

في الميدان ، ثم يمنحون أوسمة الشجاعة ، وهم في القاهرة غارقون في المواخير
« والكباريات ! »

فماذا على السادة أن يربطوا بلادهم بعجلة الرأسمالية — حليقتهم
الطبيعية — وهم في مأمن من كل خسارة ؟ وماذا على الرأسمالية الغربية أن
تردري صيحات الشعوب للحرية ، وفي يدها زمام السادة ، الذين يعرفون
أولياء نعمتهم الحقيقيين ، وحماةهم الأصليين ؟ !

وأمادعاة الشيوعية فإنهم يمنوننا بالخبز والسلام إذا نحن انضممنا إلى
صفوف الشيوعية ، حتى تنتصر الشيوعية .

ونحن في حاجة حقاً إلى الخبز والسلام . ولكننا في حاجة معهما إلى
القوة والكرامة . والشيوعية تأبى علينا أن يكون لنا وجود ذاتي ، وأن
نرفع رؤوسنا كأدمين . وهامى ذى تقدم لنا المثل في موقفها من ربيبتها
الأولى يوغسلافيا ، حينما همت أن يكون لها في ذاتها وجود .

والشيوعية قد تكون الطريق الوحيد في أوروبا المسيحية لتحقيق عدالة
اجتماعية مادية ؛ ولكنها ليست الطريق الوحيد في بلادنا حيث نملك وسائل
أخرى لتحقيق عدالة اجتماعية أشمل وأكرم من عدالة الشيوعية المادية ،
لا تسلبنا وجودنا الذاتي ، ولا تقاوم رغبتنا الطبيعية في الكرامة . وهي
عندنا أكرم وأولى .

إن طريق الخلاص هو أن تبرز إلى الوجود من أرض المعركة المنتظرة
كتلة ثالثة تقول لهؤلاء ولهؤلاء : لا ! إننا لن نسمح لكم بأن تديروا المعركة
على أشلائنا وحطامنا . إننا لن ندع مواردنا تخدم مطامعكم ، ولن ندع

أجسادنا تظهر حقول ألفامكم ؛ ولن نسلمكم رقابنا كالخراف والجداء .
إن هذا وحده هو الذى يعيد إلى الأدمغة المحمومة شيئاً من الهدوء ؛
وإلى الخطوات المجنونة شيئاً من الاتزان . ثم يشعر هؤلاء وهؤلاء أن فى هذه
الرقعة الفسيحة الضخمة الهامة ناساً ، يحسب لهم حساب ، لا كميات مهمة ،
ولا ماشية وأذئاب !

وإن الذين استعمرت دعايات الكتلتين أرواحهم يقولون : إن هذا
مستحيل ما إليه من سبيل . فنحن لا نملك القوة التى تنف بها حاجزاً بين
الكتلتين ؛ وستدوسنا الأقدام من هنا أو من هناك ، لا يغنى عنا أن نعلن
الحياة ، أو أن نغضم إلى هذا أو ذاك .

وأنا أدرك كيف تستعمر الدعاية الأرواح والأذهان ؛ ولكنى لا أدرك
كيف يهون الناس على أنفسهم إلى هذا الحد الزرى ، وكيف لا ينجحون
أن يصبحوا بإرادتهم عبيداً وأشياء !

إن جيشاً ما لا يأمن أن يدير المعركة فى أرض معادية ، يتربص به أهلها
الدوائر ؛ ويتلفون ذخيرته ومؤنه ؛ ويقطعون خطوطه ومواصلاته ؛
ويتجسسون عليه للعدو ؛ ويحرمونه الهدوء والراحة ، سواء سالمهم قتركهم
إلى ما هم فيه ، أو تولى الحملة عليهم ، ليواجه الثورة الداخلية بينا هو يواجه
الأعداء فى الميدان .

ولقد هُزم الجيش الألماني الظافر مرتين بسبب الثورات والانتفاضات
الداخلية ، قبل أن يهزم فى ميادين القتال . وما من جيش يواجه عداء الشعوب
وهو آمن فى قديم الحروب أو حديثها . وما يؤمن بذلك إلا المستغفلون الأذلاء !

إن هذه الشعوب التي تعد مئات الملايين والتي تتحكم مواقعها الاستراتيجية في نتائج أية حرب عالمية ، وتتحكم مواردها الطبيعية في النصر والهزيمة .. إن هذه الشعوب لا تعجز عن شيء حين تريد ، وكل قول غير هذا هراء !

كلمة الإسلام

ذلك ما ينطق به الواقع ، وما تؤدي إليه النظرة العملية للأوضاع والأشياء .
فأين كلمة الإسلام في الموقف ، من واقع الأوضاع والأشياء ؟

١ — إن هذا الإسلام بمبادئه الكلية عن الحياة ، وبفكرته العامة عن السلام .. يلعن هذه الحروب التي تخوضها البشرية في هذه الأيام ، ويلعن الأسباب التي تدفع بها إلى الوجود ، ويلعن الداعين إليها والخاصين فيها .. إنها حرب ملعونة الدوافع ، ملعونة الوقائع ، ملعونة النتائج ، لأنها كلها حرب على كلمة الله في الأرض ، وحرب على المبادئ العليا التي أراد .
ومن ثم فالإسلام يحرم علينا أن ننضمَّ إلى قوى الطاغوت في الأرض ، وأن نعاون على الإثم والعدوان : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت^(١) » وما من شك أن بواعث هذه الحرب وأهدافها ليست في شيء من كلمة الله ، وليست بحال من الأحوال في سبيل الله .

٢ — وإن هذا الإسلام ليحرم علينا أن نمدَّ أيدينا إلى الذين يؤذون المسلمين ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويظهرون على إخراجهم : « إِمَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ^(٢) » . ولقد اشتركت إنجلترا وأمريكا ومعهما روسيا في إخراجنا

من ديارنا بفلسطين . وكل دار للمسلمين في الأرض دارنا . ولقد اشتركت فرنسا في إيدائنا ومقاتلتنا في الشمال الإفريقي كله وما ترال . ولقد قاتلونا جميعاً في الدين وما يزالون ..

ومن ثم فكل معاهدة وكل تعاون مع واحدة أو أكثر من هذه الدول الأربع يحرمها الإسلام تحريماً ؛ ويعد الدولة التي تعقدها خارقة على نص إسلامي صريح ؛ فلا طاعة لهذه الدولة على رعاياها في هذا المنكر ؛ بل على الأمة أن ترد الدولة عن المنكر بكل وسيلة وبكل طريق .

٣ — وإن هذا الإسلام ليحتم علينا أن ندفع عن البشرية الظلم ، وأن نبدأ بأنفسنا في دفع هذا الظلم عنا . وليس ظلم على وجه الأرض أشنع من الاستعمار . وهو يتمثل بالقياس إلى الوطن الإسلامي الآن في ثلاث دول ظالمة عادية : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .

ومن ثم فالإسلام يدعونا لأن نجاهد هذه الدول في كل ميدان ؛ وأن نمتشق الحسام في وجهها في أول فرصة تسنح ؛ وأن نعد أنفسنا في حالة حرب معها حتى تكف عن هذا العدوان : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ » (١) .

٤ — وما ينطبق على الدول والحكومات في هذا المجال ينطبق على الجماعات والأفراد . فكل شركة وكل مؤسسة مالية أو تجارية وكل فرد ، يتعاون مع هذه الدول أي نوع من التعاون .. هو خارج على الإسلام ، يخالف عن أمر الله ، خارج على الأمة المسامة ، مؤذ للمسلمين في كل مكان .

وهؤلاء المقاولون الذين يوردون الأطعمة أو المهمات لجيوش هذه الدول في أى مكان ؛ وهؤلاء العمال الذين يعملون لهم في المعسكرات ، أو يقومون لهم بالشحن في الموانئ وسواها ؛ وهؤلاء المشايخ المحترفون الذين تستخدمهم شركات الاستعمار لإنقاذها من الورطات . . . إنما يخونون الله ورسوله ويخونون المسلمين ويختانون أنفسهم ، ويعصون الله ورسوله كلما امتدت أيديهم بلقمة أو خدمة أو معونة أو فتوى !

إن الإسلام يحتم على كل فرد وكل هيئة وكل حكومة وكل دولة في كل بلد إسلامي أن يجاهد هذه القوى الباغية ، وأن يكأخها ، وأن يوجه إليها الطعنة التي يستطيعها بالطريق الذي يستطيعه . فنحن في حالة حرب دائمة معها حتى تسكف عن العدوان علينا ، وتسكف عن البغى في الأرض كافة . هذه هي كلمة الإسلام صريحة واضحة ، عالية مدوية تفتح لنا طريق الخلاص ، وترسم للبشرية كلها طريق السلام . السلام الكامل الشامل المبرأ من البغى والفساد والعدوان .

فأما كيف تتحقق كلمة الإسلام هذه في واقع الحياة ؟ فالجواب أنها لا تستطيع في الظروف العالمية الراهنة أن تتحقق إلا أن تخطو الأمة الإسلامية خطوتين متلازمتين :

الخطوة الأولى : هي الرجوع إلى حكم الإسلام في داخل كل دولة من دويلاتها ودولاتها القائمة . واستمداد القوانين والنشريات من الشريعة الإسلامية . وتنفيذ المبادئ الخلقية والاقتصادية والاجتماعية المستمدة من هذه الشريعة . وصياغة مناهج تعليمها وتربيتها وبرامجها في ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة .

والخطوة الثانية : هي تكتل هذه الدويلات والدول تحت الراية الإسلامية تكتلها في ميدان السياسة الدولية ، وفي المجال الاقتصادي ، وفي المجال الحربى سواء . تكتلها على أساس : أنها أولا : تطلب الاستقلال والحرية كاملين لها ولأهلها جميعا ؛ وأنها ستكون حربا على كل معتد على هذا الاستقلال . وأنها ثانيا : تقف ضد كل اعتداء وكل استعمار من أى نوع على ظهر هذه الأرض جميعا .

وهذه الكتلة المتجانسة هي التى تملك أن تحمل راية جديدة ، تمثل فكرة إنسانية جديدة ؛ وتلوح بها للبشرية الضالة الممذبة الشقية المنكودة .

هذه الكتلة المتصلة الحدود من شواطئ الأطلنطى إلى شواطئ الباسفيكى والتى تضم مراکش وتونس والجزائر وليبيا ووادي النيل وسوريا ولبنان والعراق والأردن والجزيرة العربية واليمن ، وتركيا وإيران وأفغانستان وباكستان واندونيسيا .

هذه الكتلة التى يربى عددها على مائتين وخمسين مليوناً من السكان والتى تملك أغنى منابع البترول والمواد الخام ؛ والتى تتحكم بمواقعها الاستراتيجية فى مواصلات العالم .

هذه الكتلة تملك أن يكون لها وزن ، حتى ولو كانت مجردة من السلاح ؛ وتملك أن تحمل كل كتلة من الكتلتين المتنازعتين تفكر مرتين قبل الإقدام على حرب ، تحتاج فيها هذه المناطق الشاسعة ، التى تقوم حازماً بين الكتلتين لا تبتغيان إلا باجتياحه ؛ وتفكر مرات قبل أن تظل مصرة على سياستها . ممارسة الطاغية الباغية فى هذه الأرض المنكوبة بالعبث الاستعمار .

هذه الكتلة تملك هذا كله إذا وصلت إلى درجة اليقظة فيها إلى الحد الذى تقف به فى وجه الدعايات المزيفة ، التى يقوم بها دعاة كل من الكتلتين فيها . إذا هى عرفت كيف تجبر حكامها والمستغلين فيها على انتهاج سياسة إسلامية خالصة . إذا هى نظمت اقتصادياتها وإمكانياتها وخلصتها من الاستعمار الاقتصادى الذى يمكن له فيها حكامها ، وأصحاب رؤوس الأموال المستغلين ، الذين لا يهمهم وطن ولا وقومية ولا دين .

(وأنا أكتب هذا للشعوب لا للحكومات) أكتبه للجماهير لا للمستغلين وأنا مؤمن بالشعوب والجماهير فى تلك الرقعة العريضة من الأرض . وأياما كانت عوامل الضعف والفرقة ، وعوامل الضغط والكبت ، فإن واجب الدعاة ألا يصدقوا إيمانهم بالشعوب ؛ فالشعوب تملك حين تريد . تملك أن تسبب المتاعب للأقوياء ولخلفائهم مل أهل البلاد . تملك أن تكلف هؤلاء وهؤلاء عننا دائما لا يأمنون معه الادفاع ، ولا يحمون معه ظهورهم من الاضطراب والانتقاض .

ولقد آن للشعوب أن تضع حدا لذلك العبث الأثم الذى يزاوله حكامها والمستغلون فيها ؛ وأن تقرر مصائرهما بأيديهما ، وتقطع كل يد تعبث بهذه المصائر لغاية خاصة لا تغنى هذه الشعوب . . .

لقد ضاعت فلسطين على مذبح المنافسات بين عدة بيوت حاكمة ، لالأن قوى الأمة العربية — أيا كانت ضعيفة — عجزت عن الوقوف أمام حفنة من اليهود . مهما جاءتهم النجدة من الكتلة الشيوعية والكتلة الرأسمالية . ولو

كان في مجموعة الشعب العربي من الحيوية إذ ذاك ما تحطم به من أطماع الطامعين وتضرب على أيديهم العابثة ما وقعت الكارثة .

وما وقعت الكارثة إلا لأن الرايات المتفرقة . رايات القوميات الهزيلة قد جعلت لأطماع الدويلات وبيوتها الحاكمة المقام الأول ، والكلمة الغالبة .

إن العودة إلى راية الإسلام الواحدة هي الطريق الوحيد الباقي . إن هذه الـراية اليوم هي شارة الخلاص . وإن كلمة الإسلام لدى الكلمة الأخيرة التي يتنادى بها المسلمون للتجاة . بل تتنادى بها البشرية للأمن والحياة .

الدين والسياسة

وبعد . فلقد كنت أعلم أن بعض الببغاوات الذين يسمون أنفسهم ، أو يسميهم الناس ، بالمتقنين ! سيقولون : وفيهم هذا العناء كله ؟ وما بالنا نرجع في تحديد مواقفنا السياسية ، إلى نصوص قد مضى عليها من الزمن أربعة عشر قرناً ؟ وما بالنا لا ننظر في ملابساتنا الحاضرة ، ومصالحنا الحاضرة ، ثم نخطط الخطة ونختار الطريق ؟

وللشباب البريء الذي ينخدع بتلك الببغاوات كتبت هذا الفصل الأخير . على النحو الذي تقدم . ليشهدوا أن كلمة الإسلام في موقفنا الحاضر هي الكلمة التي تملئها أية دراسة مستفيضة لواقعنا وواقع العالم . وأن راية الإسلام هي الـراية الوحيدة التي تملك أن تجمعنا من فرقة ، وأن تسكننا من قلة ، وأن تعزنا من ذل ، وأن تمكن لنا في الأرض ، وأن تهين لنا أمرنا رشداً .

وهذه شهادة من الواقع لهذا الدين ولهذه العقيدة . شهادة بأن هذا الدين عميق فى كيان الحياة ، أصيل فى نظامها ومناهجها ؛ وبأن هذه العقيدة تملك أن تقدم لنا حلولاً عملية واقعية لمشكلاتنا جميعاً حين نستهدىها هذه الحلول . فلا يبقى إذن إلا ذلك النعيق البغاوى التافه بإبعاد الدين عن السياسة ، وفصل السياسة عن الدين . . . لماذا ؟ لمجرد أن أوروبا تفعل هذا !

ولست أعلم أن هذا كلام يستحق الاحترام ، ما دام لا يقوم إلا على هذا الأساس ! أى ما دام لا يقوم على مناقشة موضوعية لمبادئ الإسلام ونظمه فى كل حقل من حقول الحياة ، ولحاجات العصر ومطالب البيئة ، ومقتضيات الظروف . فهذه المناقشة الموضوعية وحدها هى التى تثبت : إن كان هذا الدين يلبى حاجات الإنسانية وحاجاتنا مع حاجات الإنسانية أو لا يلبىها . وهى التى تبين : إن كانت نظم الإسلام ومبادئه أهدى وأقوم وأشمل وأفسح مجالاً للتطبيق ، أم أى نظام آخر من النظم التى عرقتها البشرية حتى هذا التاريخ !

أما استبعاد الإسلام من مجال الحياة لمجرد أن أوروبا استبعدت المسيحية ، أو أن الهند استبعدت الهندوكية ! فهو تقليد قردة ونعيق ببغاوات ، لا يستحق الاحترام ، ولا يستأهل الالتفات !

إن طبيعة الإسلام غير طبيعة المسيحية أو الهندوكية . وإن تاريخ الإسلام غير تاريخ المسيحية والهندوكية . وإن واقع العالم الإسلامى غير واقع أوروبا والهند تاريخياً وحالياً على السواء .

إن العقيدة الإسلامية لا يمكن عزلها عن واقع الحياة العملية فى أى حقل

من حقوقها . فهي بطبيعتها تعتمد في وجودها الذاتي على تحققها في واقع الحياة العملية . . والأمثلة على ذلك كثيرة :

إن رد الحكم إلى الإسلام ، وقيام نظمته وقوانينه على شريعة الإسلام مسألة لا يمكن فصلها عن العقيدة ، لأنها جزء من هذه العقيدة ، لا تتم تمامها إلا به ، فوجودها الذاتي معتمد على تحققه : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » فالدولة التي لا تحكم بما أنزل كافرة قطعاً بحكم هذا النص الذي لا يقبل التأويل . والمسلم لا يجوز له — إلا مضطراً في حالة العجز المطلق عن التغيير — أن يخضع لدولة كافرة . . ومن هذا يبدو أن محاولة الفرد المسلم إقامة حكم إسلامي هي محاولة لتحقيق ذات العقيدة الإسلامية . وليست شيئاً آخر غير صميم العقيدة . . وفي هذا تختلف العقيدة الإسلامية اختلافاً أساسياً مع العقيدة المسيحية أو العقيدة الهندوكية .

وإقامة حكم إسلامي معناها تحكيم الشريعة الإسلامية في نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية — على نحو من الأسس التي استعرضناها في ثنايا هذا الكتاب — وحينئذ تصبح محاولة الفرد المسلم تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وإقامتها على هذه الأسس الخاصة ، محاولة لتحقيق عقيدته الدينية ، وليست عنصراً آخر منفصلاً عن ذات العقيدة ؛ وسكوته عن هذه المحاولة لا يعني أن عقيدته قد وجدت وكملت ، وأنه إنما يسكت عن شيء خارج عنها ؛ إنما يعني أن عقيدته الدينية ذاتها لم توجد أو لم تكمل . . في حين أن اتجاهها كهذا لا وجود له في المسيحية أو الهندوكية . لأن النظم الاجتماعية أو الاقتصادية متروكة للدولة ، والعقيدة الدينية تكمل بمجرد قيام الفرد بالشعائر التعبدية .

والإسلام كما تبيننا في هذا الفصل وفي الفصول السابقة مبادئ معينة في المعاملات الدولية ؛ وفي سلوك الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى ؛ وفي تبعات الأمة المسامة في المجال الإنساني . واخلاف عن هذه المبادئ المعينة معناه الشرود عن صميم العقيدة . معناه أن هذه العقيدة لم يتحقق وجودها الذاتي ، أو لم تكمل في ضمير المؤمنين بها . على حين أن المسيحي أو الهندوكي يملك أن يكون مسيحياً أو هندوكياً كامل العقيدة . وهو يدع هذه الشؤون كلها لرجال السياسة ، الذين قد لا يعرفون عن الدين حرفاً واحداً !

وهكذا يبدو أن طبيعة الإسلام ذاتها تختلف في صميمها عن طبيعة المسيحية أو الهندوكية . وأن أوربا أو الهند تملك أن تفصل الدين عن السياسة ، ثم تبقى متدينة . أما في العالم الإسلامي فالأمر مختلف جداً . إنه إما عقيدة أو لا عقيدة . إما عقيدة فهو إذن حكم إسلامي ينفذ شرائع الإسلام ومبادئه في السلوك الشخصي وفي الروابط العائلية ، وفي العلاقات الاجتماعية ، وفي النظم الاقتصادية ، وفي النشاط الدولي .. وإما لا عقيدة فهو إذن حكم يستمد شرائعه ونظمه في كل حقل من حقول الحياة أو في بعضها من مصادر أخرى . ولا يمكن في هذه الحالة أن يقال : إن هؤلاء الذين يصنعون هذا : مسلمون يدينون بالإسلام عقيدة !

فالمسألة التي يجب أن تناقش إذن هي : هل تملك العقيدة الإسلامية والمبادئ العامة التي تتضمنها ، والنظم والشرائع المنبثقة منها .. هل تملك أن تلبي حاجتنا الحاضرة ، وحاجات البشرية كلها ولجأت إليها ؟

والجواب من غير تردد ولا تلغم : أن نعم ! والدراسة الموضوعية هي وحدها المرجع والحكم .

وهانحن أولاء قد شهدنا في فصول هذا الكتاب المتقدمة أن النظم المنبثقة من العقيدة الإسلامية ، تتناول حياة الفرد ، وحياة البيت ، وحياة المجتمع ، وحياة الإنسانية ، في أوسع نطاق ، وتضم جوانحها على أرقى وأفسح حاجات البشرية المتجددة إلى يومنا هذا .

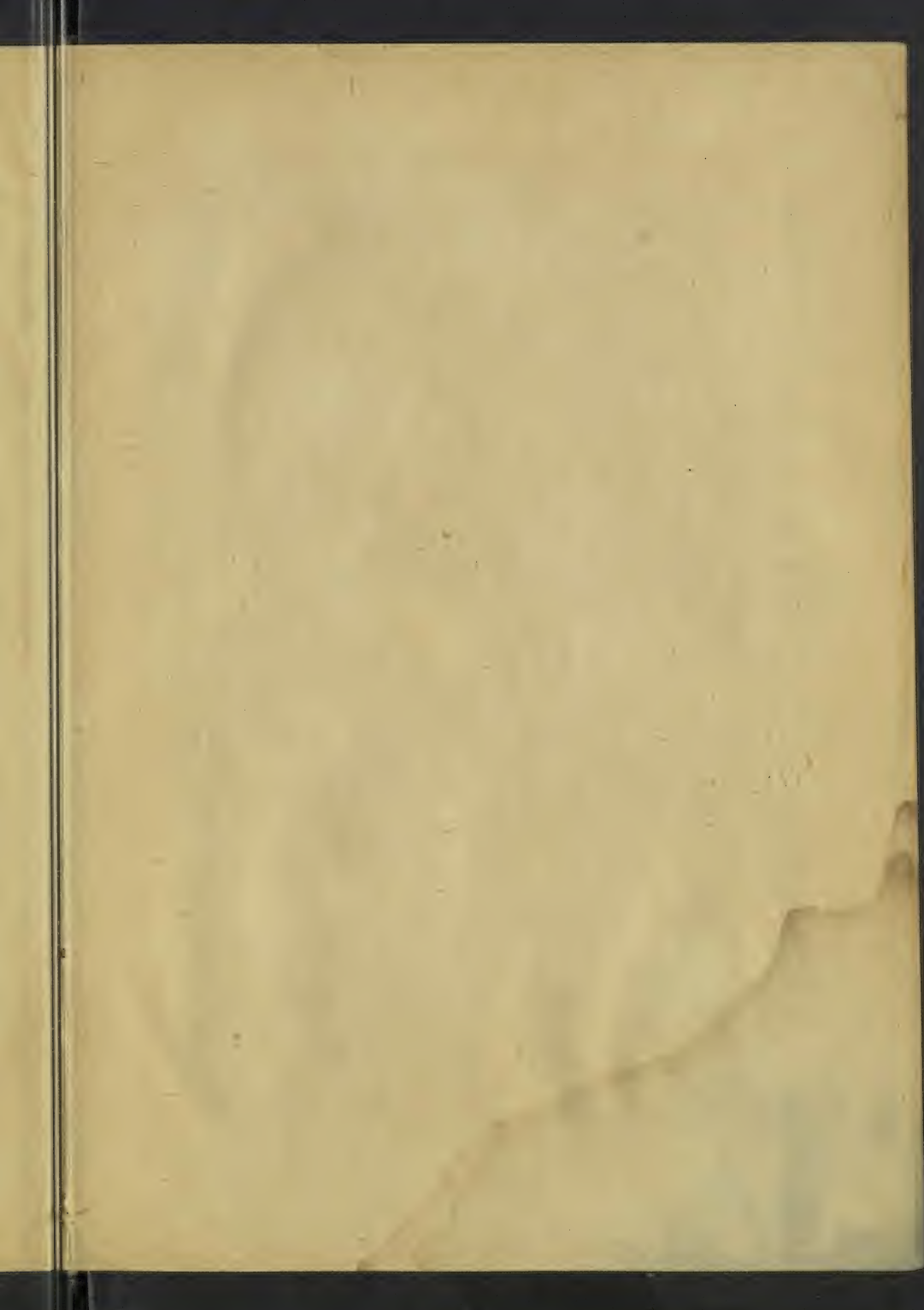
وعلى هذه الأسس تمكن إقامة حياة بشرية عضرية متجددة . أما تفصيلات النظم والتشريعات والقوانين التي تستمد من هذه الأسس الكلية . فهو عمل هيئات ولجان متخصصة في كل حقل .. وهذا ما أدعو إليه المتخصصين في العالم الإسلامي كله . كل في دائرة اختصاصه ^(١) .
والله المهادي ومنه التوفيق .

(١) في كتاب « نحو مجتمع إسلامي » محاولة للقيام بدراسة وافية لمقومات المجتمع الإسلامي ودستوره ، كما يمكن أن تكون في القرن العشرين .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٥	العقيدة الحياة
١١	طبيعة السلام فى الإسلام
٢٩	سلام الضمير
٢٩	المنطق والعقيدة
٣٤	الأشواق والضرورات
٣٧	الخطيئة والتوبة
٤١	التكليف والطاقة
٤٥	الاطمئنان إلى الله
٤٧	الضمانات والتأمينات
٥٢	سلام الميت
٥٢	الرباط المقدس
٥٥	الاختلاط والتبرح
٦٠	الحدود
٢٤	الطلاق
٧٠	تعدد الزوجات
٧٧	التكافل العائلى
٨٠	سلام المجتمع
٨٢	وجدان الحب والرحمة
٨٥	الأدب النفسى والاجتماعى
٨٨	شعور التعاون والتضامن
٩١	الأهداف العليا للحياة

صفحة	
٩٤	نظام الحكم
٩٧	ضمانات العدالة القانونية
١٠٠	ضمانات الأمن والسلامة
١٠٦	ضمانات الحياة المعيشية
١٠٩	التوازن الاجتماعي
١٢٣	الاطمئنان إلى القانون
١٢٨	سلام العالم
١٣٠	الجهاد في سبيل الله
١٣٦	روح الساحة الإنسانية
١٤٣	العنصر الأخلاقي في المعاملات
١٥٦	والآن
١٥٧	على حافة الهاوية
١٦٣	في مفرق الطرق
١٧٠	طريق الخلاص
١٧٤	كلمة الإسلام
١٧٩	الدين والسياسة



كتب للمؤلف

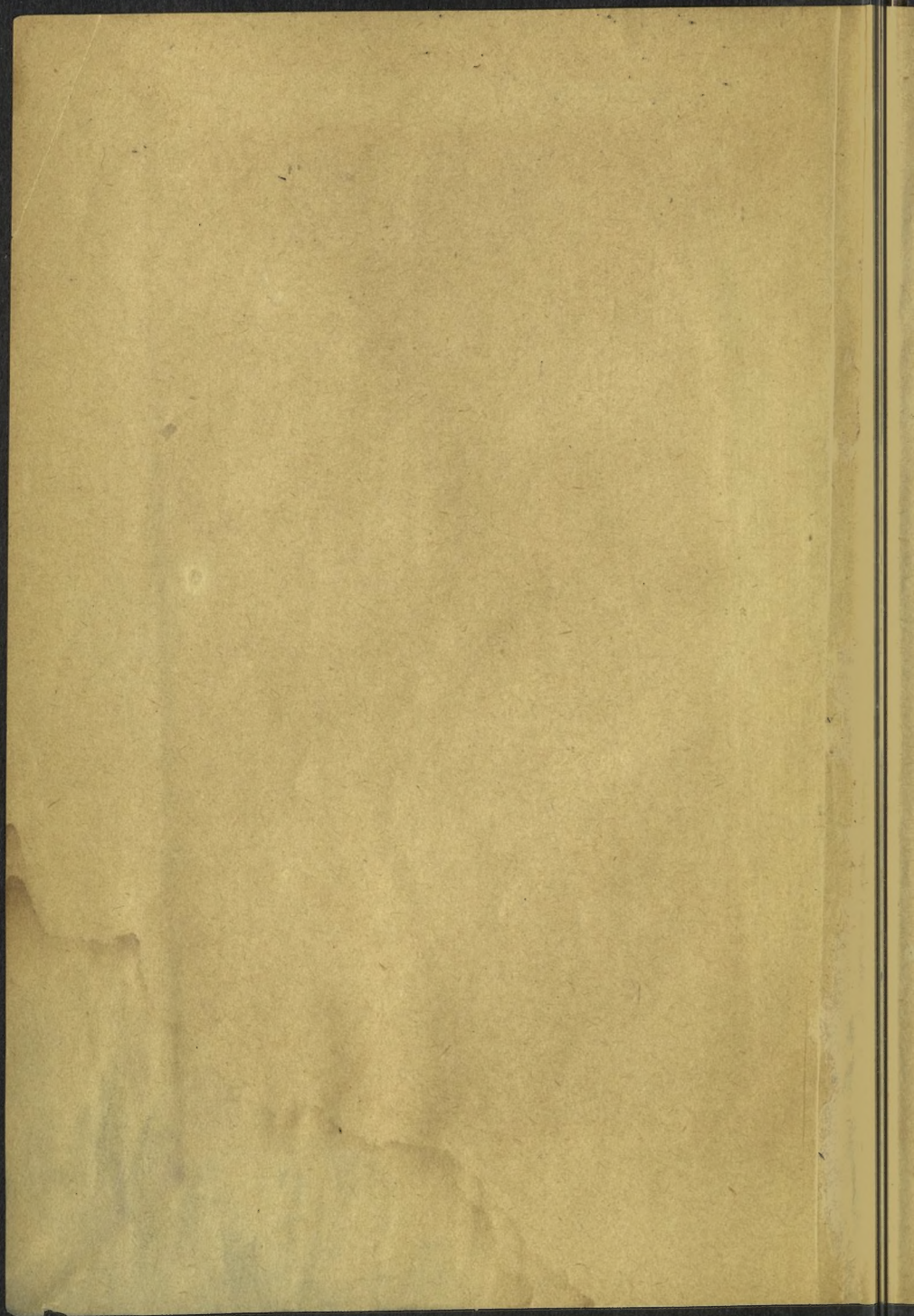
- ١ - السلام العالمى والإسلام : نشر مكتبة وهبة .
- ٢ - العدالة الاجتماعية فى الإسلام : « لجنة النشر للجامعيين »
- ٣ - معركة الإسلام والرأسمالية : « دار الكتاب العربى .
- ٤ - التصوير الفنى فى القرآن : « دار المعارف .
- ٥ - مشاهد القيامة فى القرآن : « دار المعارف .
- ٦ - النقد الأدبى : أصوله ومناهجه : « دار الفكر العربى .
- ٧ - كتب وشخصيات : « دار الرسالة .
- ٨ - طفل من القرية : « لجنة النشر للجامعيين »
- ٩ - أشواق : « معد مصر .
- ١٠ - المدينة المسجورة : « دار المعارف .
- ١١ - الأطياف الأربعة (بالاشتراك مع إخوته) « لجنة النشر للجامعيين
- ١٢ - الشاطئ المجهول : (شعر) نقد
- ١٣ - مهمة الشاعر فى الحياة نقد
- ١٤ - نقد كتاب مستقبل الثقافة نقد

الكتب التالية

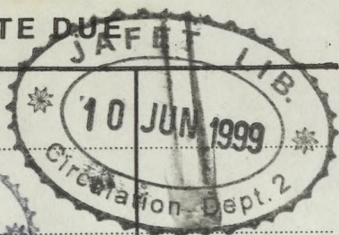
- ١ - نحو مجتمع إسلامى
- ٢ - أمريكا التى رأيت
- ٣ - مع الخالدين
- ٤ - حلم الفجر (شعر)



القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥١



DATE DUE



297.617:K97sA:c.1

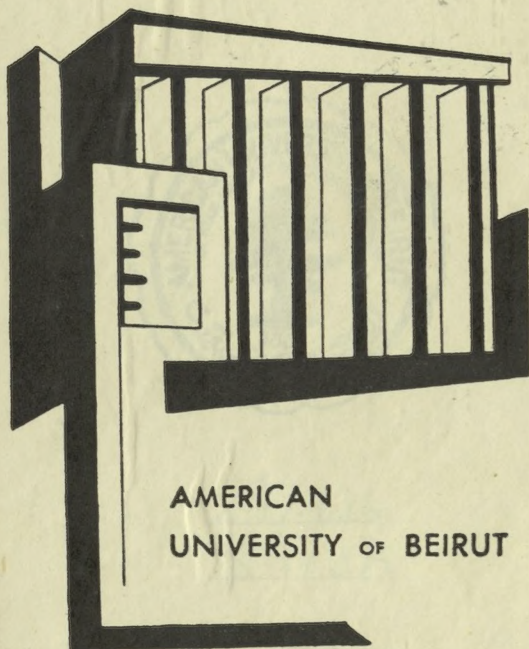
قطيب، سيد

السلام العالمي والاسلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010568



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

